اهدنا الصراط المستقيم

صلاح عامر



"اهدنا الصراط المستقيم"
مقدِّمة الكتاب

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَن يَهْدِه الله فلا مضلَّ له، ومَن يضللْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ١٠٢].

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: ١].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهَدْي هَدْي محمد - ﷺ - وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

قال - تعالى -: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة: ١ - ٧].

يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله -:

قوله - تعالى -: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة: ٦]، فالهداية: هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة، ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل، فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف، ترتَّب عليه هدايةُ التوفيق، وجعل الإيمان في القلب، وتحبيبه إليه، وتزيينه في القلب، وجعله مؤثرًا له، راضيًا به، راغبًا فيه.

وهما هدايتان مستقلتان، لا يحصل الفلاح إلا بهما، وهما متضمِّنتان تعريف ما لم نعلمْه من الحق تفصيلًا وإجمالًا، وإلهامنا له، وجعلنا مريدينَ لاتباعه ظاهرًا وباطنًا، ثم خلق القدرة لنا على القيام بموجب الهُدَى بالقول والعمل والعزم، ثم إدامة ذلك لنا، وتثبيتنا عليه إلى الوفاة.

ومن هنا يُعلَم اضطرارُ العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلان قول مَن يقول: إذا كنا مُهْتَدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهولَ لنا من الحق أضعاف المعلوم، وما لا نريد فعله تهاونًا وكسلاً مثل ما نريده، أو أكثر منه، أو دونه، وما لا نقدر عليه - مما نُريده - كذلك،

وما نعرف جملته ولا نَهتَدِي لتفاصيله؛ فأمرٌ يفوت الحصر، ونحن محتاجون إلى الهداية التامة، فَمَن كملتْ له هذه الأمور، كان سؤالُ الهداية له سؤالَ التثبيت والدوام.

وللهداية مرتبة أخرى - وهي آخر مراتبها - وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة، وهو الصراط الموصل إليها، فَمَن هُدِي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم، الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، هُدِي هناك إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى جنته ودار ثوابه، وعلى قدر ثبوت قَدَم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم، وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذاك الصراط، فمنهم مَن يمرُّ كالبرق، ومنهم مَن يمرُّ كالطرف، ومنهم مَن يمر كالريح، ومنهم مَن يمر كشدِّ الركاب، ومنهم مَن يسعى سعيًا، ومنهم مَن يمشي مشيًا، ومنهم مَن يحبو حبوًا، ومنهم المخدوش المرسَل، ومنهم المكردس في النار، فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا، حذو القذة بالقذة[1]، {جَزَاءً وِفَاقًا} [النبأ: ٢٦]، {هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [النمل: ٩٠].

ولينظر الشبهات والشهوات التي تعوقُه عن سيره على هذا الصراط المستقيم، فإنها الكلاليب التي بجنبتي ذاك الصراط، تخطفه وتعوقه عن المرور عليه، فإن كثرتْ هنا وقَوِيتْ، فكذلك هي هناك، {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [فصلت: ٤٦]؛ فسؤال الهداية متضمِّن لحصول كل خير، والسلامة من كل شر"[2].

وجزى الله خيرًا كلَّ مَن أعان على مراجعته، وطباعته، ونشره وتوزيعه، أو نصحنا بخصوصه، سائلاً الله - عز وجل - أن يتقبَّله مني، ومن كل مَن شارك فيه عملاً صالحًا، ولوجهه الكريم خالصًا، وصلِّ اللهم وسلِّم على نبيِّنا محمد، الهادي إلى صراط الله المستقيم، بإذن ربه، وعلى آله وصحبه وسلم.

جمعه وأعده بحمد الله وتوفيقه/ الباحث في القرآن والسنة.

أخوكم في الله / صلاح عامر

١ – انظر الحديث الوارد في صفة هؤلاء في: البخاري (٧٤٣٩) عن أبي سعيد الخدري، و(٨٠٦، ٣٤٣٧) عن أبي هريرة، ومسلم (١٨٢)، و(١٩٥) عن أبي هريرة وأبي مالك، عن ربعي، عن حذيفة، وأحمد (٧٧٠٣)، تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين، والترمذي (٢٥٥٧).

٢ – "مدارج السالكين" للإمام ابن القيم – رحمه الله – (١/١٠ – ١١) ط/ دار التقوى – مصر.

الفصل الأول: معنى الصراط المستقيم لغةً وشرعًا وبيان مَن هو عليه

معنى الصراط المستقيم لغةً وشرعًا:

يقول الإمام الشوكاني في تفسيره " فتح القدير": والصراط: الطريق.
قال ابن جرير: أجمعتِ الأمةُ من أهل التأويل جميعًا على أن الصراط المستقيم، هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاجَ فيه، وهو كذلك في لغة جميع العرب.
قال: ثم تستعيرُ العربُ الصراطَ فتستعمله؛ فتصف المستقيم باستقامته، والمعوجَّ باعوجاجه.
وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة: ٦]، يقول: ألهمنا دينك الحق.

وأخرج ابن جرير عنه، وابن المنذر نحوه، وأخرج وكيع وعبدُ بن حميد وابن جرير، وابن المنذر والحاكم، وصحَّحه، عن جابر بن عبدالله أنه قال: "هو دين الإسلام، وهو أوسعُ مما بين السماء والأرض"، وأخرج نحوه ابن جرير عن ابن عباس، وأخرج نحوه أيضًا عن ابن مسعود، وناس من الصحابة.

وعن النوَّاس بن سمعان الكلابي، قال: قال رسول الله - ﷺ -: ((ضرب الله مثلاً صراطًا مستقيمًا، وعلى جنبتي الصراط سورانِ، فيهما أبوابٌ مفتحة، وعلى الأبواب ستورٌ مُرخَاة ، وعلى باب الصراط داعٍ يقول: يا أيها الناسُ، ادخلوا الصراط جميعًا ولا تتفرَّجوا، وداعٍ يدعو من جوفِ الصراط، فإذا أراد يفتحُ شيئًا من تلك الأبواب، قال: ويحَك لا تفتحه، فإنك إن تفتحْه تَلِجْه، والصراط الإسلام، والسورانِ حدود الله - تعالى - والأبواب المفتَّحة محارم الله - تعالى - وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله - عز وجل - والداعي من فوق الصراط واعظُ الله في قلب كل مسلم)) [٣].
وأخرج وكيع، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو بكر الأنباري، والحاكم، وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان، عن ابن مسعود أنه قال: "هو كتاب الله".
وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عَدِي، وابن عساكر عن أبي العالية قال: "هو رسول الله - ﷺ - وصاحباه من بعده"، وأخرج الحاكم وصححه عن أبي العالية عن ابن عباس مثله.

---

٣ - صحيح: رواه أحمد (١٧٦٧١) تعليق شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن، والترمذي (٢٨٥٩)، و"المشكاة"، (١٩١)، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٣٨٨٧).

وروى القرطبي عن الفضيل بن عياض أنه قال: "الصراط المستقيم: طريق الحج"، قال: وهذا خاص، والعموم أولى؛ انتهى.
وجميع ما روي في تفسير هذه الآية ما عدا هذا المروي عن الفضيل يصدق بعضه على بعض؛ فإن مَن اتبع الإسلام أو القرآن أو النبي - ﷺ - فقد اتَّبع الحق.
وقد ذكر ابن جرير نحو هذا، فقال: والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي أن يكونَ مَعْنيًّا به: وفِّقْنا للثبات على ما ارتضيتَه ، ووفَّقتَ له مَن أنعمتَ عليه من عبادك من قول وعمل، وذلك هو الصراط المستقيم؛ لأن مَن وفِق إليه ممن أنعم الله عليه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فقد وفِّق للإسلام، وتصديق الرسل ، والتمسك بالكتاب، والعمل بما أمره الله به، والانزجار عمَّا زجره عنه، واتباع منهاج النبي - ﷺ - ومنهاج الخلفاء الأربعة، وكل عبد صالح، وكل ذلك من الصراط المستقيم"؛ انتهى[٤].

إثبات أن الله - سبحانه وتعالى - ورسوله - ﷺ - والمؤمنين على صراط مستقيم:
لقوله - تعالى - عن نبيِّه هود - عليه السلام - لقومه: {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [هود: ٥٦]، ولقوله - تعالى -: {يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [يس: ١ - ٤]، وقوله - تعالى -: {فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الزخرف: ٤٣]، وقوله - تعالى -: {وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الأنعام: ٣٩].
يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله - في "مدارج السالكين":
"والصراط المستقيم هو صراط الله، وهو يخبر أن الصراط عليه - سبحانه - كما ذكرنا، ويخبر أنه - سبحانه - على الصراط المستقيم، وهذا في موضعينِ من القرآن: في هود والنحل، قال في هود: {مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[هود: ٥٦]، وقال في النحل: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [النحل: ٧٦]؛ فهذا مثلٌ ضَرَبه الله للأصنام التي لا تسمع، ولا تنطق، ولا تعقل، وهي كَلٌّ على

٤ – "فتح القدير" للإمام الشوكاني بتصرف.

عابدها، يحتاج الصنم إلى أن يحمله عابده، ويضعه ويُقِيمه ويخدمه، فكيف يسوونه في العبادة بالله، الذي يأمر بالعدل والتوحيد؟ وهو قادر، متكلم، غني، وهو على صراط مستقيم في قوله وفعله؛ فقوله صدق، ورشد، ونصح، وهدى، وفعله حكمة، وعدل، ورحمة، ومصلحة، هذا أصح الأقوال في الآية، وهو الذي لم يذكر كثير من المفسِّرين غيره، ومَن ذكر غيره قدَّمه على الأقوال، ثم حكاها بعده، كما فعل البغوي، فإنه جزم به وجعله تفسيرَ الآية، ثم قال: وقال الكلبي: يدلُّكم على صراط مستقيم.

قلتُ: ودلالته لنا على الصراط هي من موجب كونه - سبحانه وتعالى - على الصراط المستقيم؛ فإن دلالته بفعله وقوله، وهو على الصراط المستقيم في أفعاله وأقواله، فلا يناقض قول مَن قال: إنه - سبحانه - على الصراط المستقيم.

قال: وقيل: هو رسول الله - ﷺ - يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم.

قلتُ: وهذا حق، لا يناقض القول الأول، فالله على الصراط المستقيم، ورسوله - صلى الله عليه وسلم - عليه، فإنه لا يأمر ولا يفعل إلا مقتضاه وموجبه، وعلى هذا يكون المثَلُ مضروبًا لإمام الكفَّار وهاديهم، وهو الصنم الذي هو أبكم، لا يقدر على هدى ولا خير، ولإمام الأبرار وهو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم.

وعلى القول الأول: يكون مضروبًا لمعبود الكفار ومعبود الأبرار، والقولان متلازمان؛ فبعضهم ذكر هذا، وبعضهم ذكر هذا، وكلاهما مراد من الآية.

قال: وقيل كلاهما للمؤمن والكافر؛ يرويه عطية عن ابن عباس - رضي الله عنهما، وقال عطاء: الأبكم أُبَي بن خلف، ومَن يأمر بالعدل: حمزة، وعثمان بن عفان، وعثمان بن مظعون - رضي الله عنهم.

قلتُ: والآية تحتمله، ولا يناقض القولين قبله؛ فإن الله على صراط مستقيم، ورسوله - ﷺ - وأتباع رسوله، وضد ذلك معبود الكفار وهاديهم، والكافر التابع والمتبوع والمعبود، فيكون بعض السلف ذكر أعلى الأنواع، وبعضهم ذكر الهادي، وبعضهم ذكر المستجيب القابل، وتكون الآية متناولة لذلك كله، ولذلك نظائر كثيرة في القرآن.

وأما آية هود، فصريحة لا تحتمل إلا معنى واحدًا، وهو أن الله - سبحانه - على صراط مستقيم، وهو - سبحانه - أحق مَن كان على صراط مستقيم؛ فإن أقوالَه كلَّها صدق ورشد، وهدى وعدل وحكمة، {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً} [الأنعام: ١١٥]، وأفعاله كلها مصالح وحِكَم، ورحمة، وعدل، وخير، فالشرُّ لا يدخل في أفعاله ولا أقواله ألبتة، لخروج الشر عن

الصراط المستقيم، فكيف يدخل في أفعال مَن هو على الصراط المستقيم أو أقواله؟ وإنما يدخل في أفعال مَن خرج عنه وفي أقواله، وفي دعائه - ﷺ -: ((لبيك وسَعْديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك)) [٥].

ولا يُلتفتُ إلى تفسير مَن فسَّره بقوله: والشر لا يُتقرَّب به إليك، أو لا يصعد إليك؛ فإن المعنى أجلُّ من ذلك، وأكبر وأعظم قدرًا، فإن مَن أسماؤه كلُّها حسنى، وأوصافُه كلها كمال، وأفعاله كلها حكم، وأقواله كلها صدق وعدل - يستحيلُ دخول الشر في أسمائه، أو أوصافه، أو أفعاله، أو أقواله.

فطابق بين هذا المعنى وبين قوله: {إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [هود: ٥٦]، وتأمَّل كيف ذكر هذا عقيب قوله: {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ} [هود: ٥٦]؛ أي: هو ربي، فلا يسلمني ولا يضيعني، وهو ربكم فلا يسلطكم عليَّ، ولا يمكّنكم مني؛ فإن نواصيكم بيدِه، لا تفعلون شيئًا بدون مشيئته، فإن ناصية كل دابة بيدِه، لا يمكِنُها أن تتحرَّك إلا بإذنه، فهو المتصرِّف فيها، ومع هذا فهو في تصرفه فيها، وتحريكه لها، ونفوذ قضائه وقدره فيها - على صراط مستقيم، لا يفعل ما يفعل من ذلك إلا بحكمة وعدل ومصلحة، ولو سلَّطكم عليَّ، فله من الحكمة في ذلك ما له الحمد عليه؛ لأنه تسليطُ مَن هو على صراط مستقيم، لا يظلم ولا يفعل شيئا عبثًا بغير حكمة، فهكذا تكون المعرفة بالله، لا معرفة القدرية المجوسية والقدرية الجبرية، نُفَاة الحِكَم والمصالح والتعليل، والله الموفِّق - سبحانه" [٦].

إثبات هداية الله - تعالى - لأنبيائه وعباده المؤمنين إلى الصراط المستقيم:

لقولِه - تعالى - لنبيّه - ﷺ -: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام: ١٦١].

ويقول المفكر السويسري "يوهان دي كنبرت": (١٨٣٦ - ١٩١٢) في كتابه "محمد والإسلام": "كلما ازداد الباحث تنقيبًا في الحقائق التاريخية الوثيقة المصادر فيما يخص الشمائل المحمدية، ازداد احتقارًا لأعداءِ محمد - ﷺ- أمثال: إنجلز، وبريد، وماركس في آرائه القديمة،

---

٥ – مسلم (٧٧١)، وأحمد في "المسند" (٨٠٣)، وأبو داود (٧٦٠)، والترمذي (٣٤٢٢)، والنسائي (٨٩٧) عن علي – رضي الله عنه.

٦ – " مدارج السالكين" للإمام ابن القيم – رحمه الله – (١/١٧ – ١٨) ط/ دار التقوى – مصر.



وغيرهم من متعصبي المستشرقين، الذين أشرعوا ألسنة الطعن في محمد - ﷺ- قبل أن يعرفوه ويدرسوا دعوته، ونسبوا إليه ما لا يجوز أن ينسب إلى رجل عادي، فضلاً عن رجل كمحمدٍ، الذي يحدِّثنا التاريخ بأنه سار حسب هداه وإرادته، المستمدَّين من الله[٧].

ولقوله - تعالى -: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاً هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الأنعام: ٨٣ - ٨٧].

ولقوله - تعالى -: {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الحج: ٥٤].

بيان سبيل الله المستقيم ووجوب سلوكه، وسبل الشيطان الرجيم ووجوب تجنُّبها:

لقوله - تعالى -: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون} [الأنعام: ١٥٣].

وعن عبدالله بن مسعود قال: خطَّ رسول الله - ﷺ - خطًّا بيده، ثم قال: ((هذا سبيل الله مستقيمًا))، قال: ثم خطَّ عن يمينه وشماله، ثم قال: ((هذه السبل، وليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه)) ثم قرأ: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ}[٨].

وقال الإمام القاسمي في "محاسن التأويل": "القول في تأويل قوله - تعالى -: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: ١٥٣].

{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ}، يقرأ بفتح همزة {أَنَّ} والتشديد، ومحلها مع ما في حيزها بحذف لام العلة؛ أي: ولأن هذا الذي وصيتكم به من الأمر والنهي، طريقي وديني الذي

---

٧ - "رسائل إلى سلمان رشدي من كبار مفكري وفلاسفة العالم المسيحي"؛ سيد حافظ أبو الفتوح، (ص: ٩٥)، نقلاً عن "عظمة الرسول "؛ للشيخ محمد بيومي، ط/ دار مكة المكرمة (١٨/١).

٨ - حسن: رواه أحمد في "المسند" (٤١٤٢، ٤٤٣٧)، وابن حبان في "صحيحه" (٦، ٧)، والحاكم في "المستدرك" (٢٩٣٨)، وصححه، ووافقه الذهبي، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.



ارتضيته لعبادي قويمًا لا اعوجاجَ فيه، فاعلموا به، وجوز أن يكون محلها مع ما في حيزها النصب على (ما حرم)؛ أي: وأتلو عليكم أن هذا صراطي، وقرئ بكسر الهمزة على الاستئناف.

{وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ}؛ يعني: الأديان المختلفة، أو طرق البدع الضلالات.

{فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ}؛ أي: فتفرقكم عن صراطه المستقيم، وهو دين الإسلام الذي ارتضاه لعباده".

لطائف:

قال إلكيا الهراسي: "في الآية دليل على منع النظر والرأي، مع وجود النص".

قال ابن كثير: "إنما وحَّد (سبيله)؛ لأن الحق واحد، ولهذا جمع (السبل) لتفرقها وتشعبها، كما قال - تعالى -: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ} [البقرة: ٢٥٧]".

قال ابن عطية: "وهذه السبل تعم اليهودية، والنصرانية، والمجوسية، وسائر أهل الملل وأهل البدع والضلالات، من أهل الأهواء والشذوذ في الفروع، وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام، وهذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد.

قال قتادة: اعلموا أن السبيل سبيل واحد، جماعة الهدى، ومصيره الجنة، وأن إبليس استبدع سبلاً متفرقة، جماعة الضلالة، ومصيرها إلى النار.

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية، وفي قوله: {أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} [الشورى: ١٣]، قال: أمَرَ اللهُ المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والفُرْقة، وأخبرهم أنه إنما هَلَكَ مَن كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله.

{ذَلِكُمْ} إشارة إلى ما ذكر من اتباع سبيله - تعالى - وترك اتباع سائر السبل.

{وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}؛ أي: تتقون اتباعَ الكفر والضلالة، وفيه تأكيد أيضًا.



الفصل الثاني: أسباب الهداية إلى الصراط المستقيم

(١) تحقيق التوحيد:

لقوله - تعالى - لرسوله - ﷺ -: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: ١٦١ - ١٦٣].

ولقوله - تعالى - عن عيسى - عليه السلام - لقومه: {أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} [آل عمران: ٤٩ - ٥١].

ولقوله - تعالى - عن عبده ورسوله عيسى - عليه السلام -: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} [مريم: ٣٠ - ٣٦].

ولقوله - تعالى -: {وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} [الزخرف: ٦٣ - ٦٤].

ولقوله - تعالى -: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} [يس: ٦٠ - ٦١].

ولقوله - تعالى -: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} [الأنعام: ٨٢].

وعن علقمة، عن عبدالله - رضي الله عنه - قال: لما نزلت: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ}، قلنا: يا رسول الله ﷺ ، أيُّنا لا يظلم نفسه؟ قال: ((ليس كما تقولون)) {لَمْ يَلْبِسُوا

إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} بشركٍ، أولم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: {يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: ١٣]))[٩].

ولقوله - تعالى -: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [النحل: ٣٦].

ولقوله - تعالى -: {قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام: ٧١].

وفي تفسير الجلالين: {قُلْ أَنَدْعُو} أنعبد {مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا} بعبادته {وَلَا يَضُرُّنَا} بتركها، وهو الأصنام، {وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا} نرجع مشركين، {بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ} إلى الإسلام {كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ} أضلته {الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ} متحيِّرًا، لا يدري أين يذهب؟! حال من الهاء {لَهُ أَصْحَابٌ} رفقةٌ {يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى}؛ أي: ليهدوه الطريق يقولون له: {ائْتِنَا}، فلا يجيبهم فيَهلِك، والاستفهام للإنكار، وجملة التشبيه حال من ضمير "نُرَدُّ".

{قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى}، الذي هو الإسلام {هُوَ الْهُدَى} وما عداه ضلال.

{وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ}؛ أي: بأن نسلم {لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}.

ولقوله - تعالى -: {قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ} [الأنعام: ٥٦].

ولقوله - تعالى -: { وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الزمر: ١٧ - ١٨].

يقول العلامة السعدي - رحمه الله -: "لما ذكر حال المجرمين ذكر حال المنيبين وثوابهم، فقال: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا} [الزمر: ١٧]، والمراد بالطاغوت في هذا الموضع عبادة غير الله، فاجتَنَبُوها في عبادتها، وهذا من أحسن الاحتراز من الحكيم العليم؛ لأن المدح إنما يتناول المجتنبَ لها في عبادتها.

---

٩ - البخاري (٣٣٦٠)، ومسلم (١٢٤)، وأحمد في المسند (٣٥٨٩)، تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.



{وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ} بعبادتِه وإخلاص الدِّين له، فانصرفت دواعيهم من عبادة الأصنام إلى عبادة الملِكِ العلاَّم، ومن الشرك والمعاصي إلى التوحيد والطاعات.

{لَهُمُ الْبُشْرَى} التي لا يقادرُ قدرَها، ولا يَعلمُ وصفَها، إلا مَن أكرمهم بها، وهذا شامل للبُشْرى في الحياة الدنيا بالثناء الحسن، والرؤيا الصالحة، والعناية الربانية من الله، التي يرون في خلالها، أنه مريد لإكرامهم في الدنيا والآخرة، ولهم البُشْرى في الآخرة عند الموت، وفي القبر، وفي القيامة، وخاتمة البشرى ما يبشرهم به الرب الكريم، من دوام رضوانه، وبره، وإحسانه، وحلول أمانه في الجنة، ولَمَّا أخبر أن لهم البشرى، أمره الله ببشارتهم، وذكر الوصف الذي استحقوا به البشارة، فقال: {فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ} [الزمر: ١٧ - ١٨].

وهذا جنس يشمل كل قول، فهم يستمعون جنس القول؛ ليميزوا بين ما ينبغي إيثاره، مما ينبغي اجتنابه، فلهذا مِن حزمهم وعقلهم أنهم يتَّبعون أحسنه، وأحسنُهُ على الإطلاق كلامُ الله وكلام رسوله - ﷺ - كما قال في هذه السورة: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا} [الزمر: ٢٣] الآيةَ.

وفي هذه الآية نكتة، وهي: أنه لما أخبر عن هؤلاء الممدوحين أنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه، كأنه قيل: هل من طريق إلى معرفة أحسنه حتى نتصف بصفات أُولي الألباب، وحتى نعرف أن من أثره علمنا أنه من أولي الألباب؟ قيل: نعم، أحسنه ما نصَّ الله عليه: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا} [الزمر: ٢٣] الآيةَ.

{الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ} لأحسنِ الأخلاق والأعمال.

{وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ}؛ أي: العقولِ الزاكية.

ومن لبهم وحزمهم، أنهم عَرَفوا الحسن من غيره، وآثروا ما ينبغي إيثاره على ما سواه، وهذا علامة العقل، بل لا علامة للعقل سوى ذلك، فإن الذي لا يميز بين الأقوال حسنها وقبيحها، ليس من أهل العقول الصحيحة، أو الذي يميز، لكن غلبت شهوتُه عقلَه، فبقي عقلُه تابعًا لشهوته فلم يُؤثِرِ الأحسن؛ كان ناقص العقل.

توحيد الله - تعالى - على رأس أعمال الصراط المستقيم:

وقوله - تعالى -: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣].

وقوله - تعالى -: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ} [الأنعام: ١٢٥ - ١٢٦].

وقوله - تعالى -: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [التوبة: ٣٣] و[الصف: ٩].

وقوله - تعالى -: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} [الفتح: ٢٨].

وعن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله - ﷺ - قال ذات يوم في خطبته: ((ألا إن ربي أمرني أن أعلِّمَكم ما جَهِلتُم مما علمني يومي هذا، كل مالٍ نحلتُه عبدًا حلال، وإني خلقتُ عبادي حنفاءَ كلَّهم، وإنهم أتتْهم الشياطين فاجتالتْهم عن دينهم، وحرَّمت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزِّل به سلطانًا، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقَتَهم عرَبَهم وعجَمَهم، إلا بقايا من أهل الكتاب...))[١٠] الحديث.

معنى ((نحلتُه)): أعطيته، وفي الكلام حذف؛ أي: قال الله - تعالى -: كل مالٍ أعطيته عبدًا من عبادي فهو له حلال، والمراد إنكار ما حرَّموا على أنفسهم؛ من السائبة، والوصيلة، والبَحِيرة، والحامي، وغير ذلك، وأنها لم تَصِرْ حرامًا بتحريمهم، وكل مالٍ ملكه العبد فهو له حلال، حتى يتعلق به حق.

١٠- مسلم (٢٨٦٥)، وأحمد في " المسند" (١٧٥١٩).

قوله - تعالى -: ((وإني خلقتُ عبادي حنفاءَ كلَّهم))؛ أي: مسلمين، وقيل: طاهرين من المعاصي، وقيل: مستقيمين منيبين لقَبول الهداية، وقيل: المراد حين أخذ عليهم العهد في الذر، وقال: {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى} [الأعراف: ١٧٢].

قوله - تعالى -: ((وإنهم أتتْهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم))؛ هكذا هو في نسخ بلادنا: ((فاجتالتهم)) بالجيم، وكذا نقله القاضي عن رواية الأكثرين، وعن رواية الحافظ أبي علي الغساني: ((فاختالتهم)) بالخاء المعجمة، قال: والأول أصح وأوضح؛ أي: استخفُّوهم فذهبوا بهم، وأزالوهم عما كانوا عليه، وجالوا معهم في الباطل؛ كذا فسَّره الهروي وآخرون.

وقال شمر: اجتال الرجل الشيءَ؛ ذهب به، واجتال أموالهم؛ ساقها وذهب بها.

قال القاضي: ومعنى: ((فاختالوهم)) - بالخاء على رواية من رواه - أي: يحبسونهم عن دينهم، ويصدونهم عنه.

قوله - ﷺ -: ((وإن الله - تعالى - نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عرَبَهم وعجَمَهم إلا بقايا من أهل الكتاب)).

المقت: أشد البغض، والمراد بهذا المقت والنظر ما قبل بعثة رسول الله - ﷺ - والمراد ببقايا أهل الكتاب: الباقون على التمسُّك بدينهم الحقِّ من غير تبديل.

تحقيق الإيمان بأركانه وعمل الصالحات:

لقوله - تعالى -: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [يونس: ٩].

يقول العلامة السعدي في " تفسيره": يقول - تعالى -: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}؛ أي: جمعوا بين الإيمان والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة، المشتملة على أعمال القلوب وأعمال الجوارح، على وجه الإخلاص والمتابعة.

{يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ}؛ أي: بسبب ما معهم من الإيمان، يُثِيبهم اللهُ أعظم الثواب، وهو الهداية، فيعلمهم ما ينفعهم، ويمنُّ عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم؛ ولهذا قال: {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ}، الجارية على الدوام {فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ}؛ أضافها اللهُ إلى النعيم، لاشتمالها على النعيم التام، نعيم القلب بالفرح والسرور، والبهجة والحبور، ورؤية الرحمن وسماع كلامه، والاغتباط برضاه وقربه، ولقاء الأحبة والإخوان،

والتمتع بالاجتماع بهم، وسماع الأصوات المطربات، والنغمات المشجيات، والمناظر المفرحات، ونعيم البدن بأنواع المآكل والمشارب، والمناكح ونحو ذلك، مما لا تعلمه النفوس، ولا خطر ببال أحد، أو قدر أن يصفه الواصفون.

(٢) الهداية بالقرآن:

قال - تعالى -: {الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة: ١ - ٢].

وقال - تعالى -: {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: ٣٨].

وقال - تعالى -: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ} [البقرة: ١٨٥].

وقال- تعالى -: {وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [آل عمران: ٧٢ - ٧٤].

وقال - تعالى -: {وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: ٥٢].

وقال- تعالى -: {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} [طه: ١٢٣].

وقال - تعالى -: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} [الإسراء: ٩].

وقال - تعالى -: {طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ * هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [النمل: ١، ٢].

وقال - تعالى -: {الم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ} [لقمان: ١ - ٣].

وقال - تعالى -: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [المائدة: ١٥، ١٦].

وقال - تعالى -: {أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الزمر: ٢٢، ٢٣].

وقال - تعالى -: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى: ٥٢].

وقال - تعالى -: {لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [النور: ٤٦].

وقال - تعالى -: {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الحج: ٥٤].

وقال - تعالى -: {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ} [الحج: ٢٤]؛ أُلْهِموا، وقال ابن أبي خالد: إلى القرآن[١١].

ويقول الإمام ابن حجر - رحمه الله -: "وفي قوله - تعالى -: {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ} [الحج: ٢٤].

قوله: {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ}؛ أُلْهِموا إلى القرآن.

سقط قوله: "إلى القرآن" لغير أبي ذرٍّ، ووقع في رواية النسفي {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ}: ألهموا"، وقال ابن أبي خالد: "إلى القرآن، وهدوا إلى صراط الحميد: الإسلام"، وهذا هو التحرير.

وقد أخرج الطبري من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ} قال: أُلْهِموا.

وروى ابن المنذر من طريق سفيان عن إسماعيل بن أبي خالد في قوله: {إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ}، قال: القرآن، وفي قوله: {وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ}: الإسلام"[١٢].

وعن أبي موسى عن النبي - ﷺ - قال: ((إن مثل ما بعثني الله به - عز وجل - من الهدى والعلم، كمثل غيثٍ أصاب أرضًا، فكانتْ منها طائفة طيبة قَبِلت الماء، فأنبَتَتِ الكلأ والعشب

١١- البخاري معلقًا (٤٧٤١).

١٢ - "فتح الباري بشرح صحيح البخاري" للإمام ابن حجر - رحمه الله - "كتاب التفسير".

الكثير، وكان منها أجادبُ أمسكتِ الماء فنفع الله بها الناس، فشَرِبوا منها وسَقَوا وزَرَعوا، وأصاب طائفةً منها أخرى، إنما هي قيعان لا تُمسِك ماءً ولا تُنبِت كلأً، فذلك مثل مَن فَقُه في دين الله ونفعه بما بعثني الله به، فعلِمِ وعلَّم، ومَثَل من لم يرفعْ بذلك رأسًا، ولم يقبلْ هدى الله الذي أُرسِلتُ به))[١٣].

ولقوله - ﷺ -: ((وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله)) [١٤].

وقوله - ﷺ-: ((أما بعد، ألا أيها الناس! فإنما أنا بشرٌ يوشك أن يأتي رسول ربي فأُجِيب، وأنا تاركٌ فيكم ثقلينِ، أولها: كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به)) - حث على كتاب الله ورغب فيه - ثم قال: ((وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي...)).

وفي رواية: ((ألا وإني تاركٌ فيكم ثقلينِ، أحدهما كتاب الله - عز وجل - هو حبل الله، مَن اتبعه كان على الهدى، ومَن تركه كان على ضلالة))، وفيه، فقلنا: مَن أهل بيته؟

وفي رواية: ((كتاب الله فيه الهدى والنور، مَن استمسك به وأخذ به كان على الهدى، ومَن أخطأه ضل)) [١٥].

وقوله ﷺ : ((كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض)) [١٦].

وعن ابن شهاب: أخبرني أنس بن مالك أنه سمع عُمرَ الغَدَ حين بايع المسلمون أبا بكر، واستوى على منبر رسول الله - ﷺ - تشهَّد قبل أبي بكر، فقال: أما بعد، فاختار الله لرسوله - ﷺ - الذي عنده على الذي عندكم، وهذا الكتاب الذي هدى الله به رسولكم، فخذوا به تهتدوا، وإنما هدى الله به رسوله".[١٧]

---

١٣ – مسلم (٢٢٨٢)، وأحمد (١٩٥٨٨) تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

١٤ – " فتح الباري بشرح صحيح البخاري" للإمام ابن حجر – رحمه الله – "كتاب التفسير".

١٥ – مسلم (١٢١٨) عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – في "حجة الوداع".

١٦ – مسلم (٢٤٠٨) عن زيد بن أرقم – رضي الله عنه – والترمذي (٣٧٨٨).

١٧ – البخاري (٧٢٦٩).

القرآن هو الداعي على رأس الصراط المستقيم:

وعن جُبَير بن نفير، عن النَّواس بن سمعان الكلابي، قال: قال رسول الله - ﷺ -: ((ضرب الله مثلاً صراطًا مستقيمًا، وعلى جنبتي الصراط سُوران، فيهما أبواب مفتَّحة، وعلى الأبواب سُتُور مرخاة، وعلى باب الصراط داعٍ يقول: يا أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعًا ولا تتفرجوا، وداعٍ يدعو من جوفِ الصراط، فإذا أراد يفتحُ شيئًا من تلك الأبواب، قال: ويحك لا تفتحْه؛ فإنك إن تفتحْه تَلِجْه، والصراط الإسلام، والسوران حدود الله - تعالى - والأبواب المفتَّحة محارم الله - تعالى - وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله - عز وجل - والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم)) [18].

وعن حذيفة - رضي الله عنه - قال: "كان الناس يسألون رسول الله - ﷺ - عن الخير، وأسأله عن الشر، وعَرَفت أن الخير لن يسبقَني، قلتُ: يا رسول الله، أبعد هذا الخير شر؟ قال: ((يا حذيفة، تعلَّم كتاب الله، واتَّبع ما فيه))، ثلاث مرار، قال: قلت: يا رسول الله، أبعد هذا الخير شر؟ قال: ((فتنة وشر))، قال: قلت: يا رسول الله، أبعد هذا الشر خير؟ قال: ((يا حذيفة، تعلَّم كتاب الله، واتَّبع ما فيه))، ثلاث مرار، قال: قلت: يا رسول الله، أبعد هذا الشر خير؟ قال: ((هدنة على دَخَن، وجماعة على أقذاء))، قال: قلت: يا رسول الله، الهدنة على دخن، ما هي؟ قال: ((لا ترجع قلوب أقوامٍ على الذي كانتْ عليه))، قال: قلت: يا رسول الله، أبعد هذا الخير شر؟ قال: ((يا حذيفة، تعلَّم كتاب الله، واتَّبع ما فيه))، ثلاث مرار، قال: قلتُ: يا رسول الله، أبعد هذا الخير شر؟ قال: ((فتنة عمياء صماء، عليها دعاةٌ على أبواب النار، وأنت أن تموتَ، يا حذيفة، وأنت عاضٌّ على جِذلٍ، خيرٌ لك من أن تتبع أحدًا منهم)) [19].

وعن الحارث قال: دخلتُ المسجد، فإذا الناس قد وقعوا في الأحاديث فأتيت عليًّا، فقلت: يا أمير المؤمنين، ألا ترى أن الناس قد وقعوا في الأحاديث، قال: وقد فعلوها؟ قلت: نعم، قال: أما إني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: ((ستكون فتنة))، قلت: فما

---

١٨ – صحيح: رواه أحمد (١٧٦٧١)، تعليق شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن، والترمذي (٢٨٥٩)، وصححه الألباني.

١٩ – حسن: رواه أحمد في "المسند" (٢٣٣٣٠)، وقال شعيب الأرناؤوط: حديث حسن، وأبو داود (٤٢٤٦)، واللفظ له، وحسنه الألباني.



المخرج منها يا رسول الله؟ قال: ((إنها ستكون فتنة))، قيل: فما المخرج منها؟ قال: ((كتاب الله، فيه نبأ مَن قبلكم، وخبر مَن بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، مَن تركه من جبار قصمه الله، ومَن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تشبع منه العلماء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يَخلَقُ على كثرةِ الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تَنْتَهِ الجن إذ سمعته عن أن قالوا: {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ} [الجن: ١ - ٢]، مَن قال به صدق، ومَن حكم به عدل، ومَن عَمِل به أُجِر، ومَن دعا إليه هُدِي إلى صراط مستقيم)) [٢٠].

القرآن من أهم أسباب معافاة القلب من أمراض الشهوات والشبهات:

لقوله - تعالى -: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} [يونس: ٥٧].

وقوله - تعالى -: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ} [فصلت: ٤٤].

وعن عبادة بن الصامت، أن أُبَي بن كعب قال: أقرأني رسول الله - ﷺ - آيةً، وأقرأها آخرَ غير قراءة أُبَي، فقلتُ: مَن أقرأكها؟ ، قال: أقرأنيها رسولُ الله - ﷺ - قلتُ: والله، لقد أقرأنيها كذا وكذا، قال أُبَي: فما تخلَّج في نفسي من الإسلام ما تخلَّج يومئذٍ، فأتيتُ النبيَّ - صلى الله عليه وسلم - قلتُ: يا رسول الله، ألم تُقرِئني آية كذا وكذا؟ قال: بلى، قال: فإن هذا يدَّعي أنك أقرأتَه كذا وكذا، فضرب بيدِه في صدري، فذهب ذاك، فما وجدتُ منه شيئًا بعد، ثم قال رسول الله - ﷺ -: ((أتاني جبريل وميكائيل - عليهما السلام - فقال جبريل: اقرأ القرآن على حرفٍ، فقال ميكائيل: استزِدْه، قال: اقرأه على حرفين، قال: استزِدْه،

---

٢٠ –ضعيف : أخرجه أحمد (٧٠٤) وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف، والدارمي (٣٣٣١)، قال حسين سليم أسد: في إسناده مجهولان: أبو المختار سعد الطائي، وابن أخي الحارث، و(٣٣٣٢)، وقال: إسناده حسن، والترمذي (٢٩٠٦)، قال الشيخ الألباني: ضعيف، والبيهقي في "شعب الإيمان" (١٩٣٥)، قال الترمذي: لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال.

حتى بلغ سبعة أحرفٍ، قال: كلٌّ شافٍ كافٍ)) [٢١].
وفي رواية: ((أنزل القرآن على سبعة أحرف)).
وقال ابن القيم: "جماع أمراض القلب الشبهاتُ والشهواتُ، والقرآن شفاء لهما؛ ففيه من البينات والبراهين القطعية والدلالة على المطالب العالية ما لم يتضمَّنه كتاب سواه؛ فهو الشفاء بالحقيقة، لكن ذلك موقوف على فهمه وتقريره المراد فيه.
وعن قتادة، قال: (ما جالس أحدٌ القرآنَ إلا فارقه بزيادةٍ أو نقصان)، قال: ثم قرأ: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا} [الإسراء: ٨٢] [٢٢].

(٣) متابعة النبي - ﷺ -:

لقوله - تعالى - لرسوله ونبيه محمد - صلى الله عليه وآله وسلم -: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: ١٦١ - ١٦٣].
وقوله - تعالى -: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ} [الشورى: ٥٢ - ٥٣].
ولقوله - تعالى -: {وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا} [النور: ٥٤].
ولقوله - تعالى -: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف: ١٥٨].
ولقوله - تعالى -: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: ٦٦ - ٦٧].

---

٢١ –رواه مسلم ".٢٧٣ – (٨٢٠)وليس فيه لفظ:" شاف كاف" ، وأخرجه أحمد (٢١١٣٠، ٢١١٣١)، وليس في الرواية الثانية عبادة بن الصامت – رضي الله عنه – وعلّق شعيب الأرناؤوط على الرواية الأولى، فقال: إسناده صحيح على شرط مسلم، والرواية الثانية: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأبو داود(٧٣٧)،والنسائي(٩٤٠)،وابن حبان (٧٣٧)وصححه الألباني .

٢٢ "فضائل القرآن"؛ للقاسم بن سلام الهروي (١٣).

ولقوله - تعالى -: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: ١٥٣].

وعن جابر بن عبدالله قال: كان رسول الله - ﷺ - إذا خطب احمرَّت عيناه، وعلا صوته، واشتدَّ غضبه حتى كأنه منذرُ جيشٍ، يقول: ((صبَّحكم ومسَّاكم))، ويقول: ((بُعِثت أنا والساعة كهاتين))، ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى، ويقول: ((أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهُدى هُدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة))، ثم يقول: ((أنا أَوْلى بكل مؤمنٍ من نفسه، مَن ترك مالاً فلأهله، ومَن ترك دَينًا أو ضياعًا، فإليَّ وعليّ)) [٢٣].

وعن عبدالله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: قال - صلى الله عليه وسلم -: ((فإن لكل عابد شِرَّةً، ولكل شِرَّة فترةً، فإما إلى سُنَّة، وإما إلى بدعة، فَمَن كانتْ فترته إلى سُنَّة فقد اهتدى، ومَن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك)) [٢٤].

وعن عطاء بن يسار قال: لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قلتُ: أخبِرْني عن صفة رسول الله - ﷺ - في التوراة، قال: أجل، والله إنه لموصوفٌ في التوراة ببعض صفتِه في القرآن: "يا أيها النبي، إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وحِرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سمَّيتُك المتوكل، ليس بفظٍّ ولا غليظ، ولا سخَّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يُقِيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا" [٢٥].

الشاهد قوله: "ولن يقبضه الله حتى يُقِيم به الملة العوجاء".

وعن العِرْبَاض بن سارية، قال: وَعَظنا رسول الله - ﷺ - ذات يوم موعظةً بليغةً ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجل من المسلمين: كأن هذه موعظة مودِّع، فماذا تعهدُ إلينا يا رسول الله؟ قال: ((إني قد تركتُكم على البيضاءِ، ليلُها كنهارِها، لا يَزِيغ عنها بعدي منكم

---

٢٣ – مسلم (٨٦٧)، وأحمد في "المسند" (١٤٤٧١، ١٥٠٢٦)، والنسائي (١٥٧٨)، وابن ماجه (٤٥)، وابن حبان في "صحيحه" (١٠)، وصححه الألباني.

٢٤ – رواه أحمد (٦٩٥٨)، تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وابن أبي عاصم، وابن حبان في "صحيحه" (١١)، وصححه الألباني في "صحيح الترغيب" (٥٦)، و"ظلال الجنة" (٥١)، و"صحيح الجامع" (٢١٥٢).

٢٥ – البخاري (٢١٢٥)، وأحمد (٦٦٢٢).

إلا هالك، وإنه مَن يَعِشْ منكم يرى اختلافًا كثيرًا، فإياكم والبدع، وعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين، عضُّوا عليها بالنواجذ، وعليكم بالسمع والطاعة، وإن كان عبدًا حبشيًّا))[26].

قال الإمام الشاطبي - رحمه الله -: الصراط المستقيم هو سبيل الله الذي دعا إليه وهو السنة".

ويقول فضيلة الشيخ هاني الحاج: "فالصراط المستقيم هو ما بعث الله به رسوله محمدًا - ﷺ - بفعل ما أمر، وترك ما حظر، وتصديقه فيما أخبر، لا طريق إلى الله إلا ذلك، وهذا سبيل أولياء الله المتقين، وحزب الله المفلحين، وجند الله الغالبين، وكل ما خالف ذلك فهو من طريق أهل الغي والضلال ، وقد نزَّه الله نبيه - ﷺ - عن هذا وهذا، فقال - تعالى -: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: ١ - ٤].

وقال الطبري في تفسيره: حدَّثنا محمد بن عبد الأعلى الصنعاني، قال: حدَّثنا محمد بن ثَوْر، عن معمر، عن أبان أن رجلاً قال لابن مسعود: ما الصراط المستقيم؟ قال: تركَنا محمدٌ - ﷺ - في أدناه، وطرفه في الجنة، وعن يمينه جَوَادٌّ، وعن يساره جَوَادٌّ، وثَمَّ رجال يدعون مَن مرَّ بهم، فمَن أخذ في تلك الجوادِّ انتهتْ به إلى النار، ومَن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة، ثم قرأ ابن مسعود: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا} [الأنعام: ١٥٣] الآيةَ.

وقال عبدالله بن مسعود: "تعلَّموا العلم قبل أن يُقبَض، وقبضه أن يذهَبَ أهلُهُ، ألا وإياكم والتنطُّع والتعمق والبدع، وعليكم بالعتيق".

وقال مجاهد في قوله: {وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ}، قال: البدع.

قال ابن شهاب: وهذا كقوله - تعالى -: { إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا}، الآية.

فالهرب الهرب، والنجاة النجاة! والتمسك بالطريق المستقيم والسنن القويم، الذي سلكه السلف الصالح، وفيه المتجر الرابح.

يقول الشيخ عبد الرؤوف محمد عثمان:

"إذا كان الإنسان بفطرته يحب مَن نصحه أو أحسن إليه مرة أو مرتين، فما بالُنا بالناصح الأمين البَرِّ الشفيق على أمته، والذي كانت حياته كلها نصحًا لأمته، وتعليمًا لها، وتزكية لأرواحها

---

٢٦ - صحيح: رواه أحمد (١٧١٨٤)، تعليق شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح، ورجاله ثقات، وأبو داود (٤٦٠٧)، وابن ماجه (٤٢، ٤٣)، والحاكم في "المستدرك" (٣٣١)، وصححه الألباني.

وأبدانها، وهو الذي هدى البشرية - بإذن ربها - إلى الصراط المستقيم، بعدما كانت تعيش في جاهلية جهلاء وضلالة عمياء؟ ولولا رحمة الله للناس ببعثته ورسالته لعاش الناس في بحار الظلمات تتقاذفهم الأمواج، فلا يجدون إلى ساحل الهداية سبيلاً.

يقول الله - عز وجل -: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [آل عمران: ١٦٤]. وقال - تعالى -: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} [البقرة: ١٥١]، {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ} [البقرة: ١٥٢].

لأجل هذا كانت المنَّة ببعثة النبي - ﷺ - عظيمة، والنعمة بذلك جسيمة، ولا يعرف قدر هذه النعمة إلا من أدرك الفرق بين الهدى والضلال وبين الجاهلية والإسلام وبين رضا الله وسخطه. فَمَن عَرَف هذا الفرق وأدركه إدراكًا يقينيًّا، عَلِم عظم هذه النعمة التي لا تعادلها نعمة على ظهر الأرض، وأحب الرسول - صلى الله عليه وسلم - بكل قلبه، وآثر حب الله ورسوله على ما سواهما، ولأجل هذا كان الصحابة أشدَّ الخلق حبًّا لرسول الله - ﷺ - لأنهم عاشوا الجاهلية وعاينوها عن قرب، فلما جاء الإسلام وأدركوا الفرق بين الظلمات والنور، ازداد تمسكهم بالإسلام، واشتدَّ حبهم على مر الأيام لهذا النبي العظيم - صلى الله عليه وسلم[٢٧].

وقال الشاعر:

ليس الطريقُ سوى طريقِ محمد = فهي الصراطُ المستقيم لِمَن سَلَكْ
مَن يمشِ في طرقاتِه فقد اهتَدَى = سبل الرشاد، ومَن يَزِغْ فَقَد هَلَكْ[٢٨]

٢٧- "محبة الرسول بين الاتباع والابتداع"، المؤلف: عبد الرؤوف محمد عثمان، "الطبعة الأولى".

٢٨ "ذيل تذكرة الحفاظ" (١/١٧٥).



(٤) الإيمان بالغيب.
(٥) إقام الصلاة.
(٦) إيتاء الزكاة.
(٧) خشية الله.
(٨) صلة الرحم.

لقوله - تعالى -: {الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [البقرة: ١ - ٥].

ويقول الإمام السعدي - رحمه الله - في تفسير قوله - تعالى -: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ}: حقيقة الإيمان، هو التصديق التام بما أخبرتْ به الرسل، المتضمن لانقياد الجوارح[٢٩]، وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس، فإنه لا يتميَّز بها المسلم من الكافر، إنما الشأنُ في الإيمان بالغيب، الذي لم نَرَه ولم نشاهدْه، وإنما نؤمنُ به لخبر الله وخبر رسوله - ﷺ - فهذا الإيمان الذي يميزُ به المسلم من الكافر؛ لأنه تصديق مجرَّد لله ورسله، فالمؤمن يؤمنُ بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله، سواء شاهَدَه أو لم يشاهدْه، وسواء فَهِمه وعَقَله أو لم يهتدِ إليه عقله وفهمه، بخلاف الزنادقة والمكذِّبين بالأمور الغيبية؛ لأن عقولهم القاصرة المقصرة لم تهتدِ إليها، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، ففسدتْ عقولهم، ومرجتْ أحلامهم، وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى الله، ويدخل في الإيمان بالغيب (الإيمان) بجميع ما أخبر الله به من الغيوبِ الماضية والمستقبلة، وأحوال الآخرة، وحقائق أوصاف الله وكيفيتها، (وما أخبرت به الرسل من ذلك)، فيؤمنون بصفات الله ووجودها، ويتيقَّنونها، وإن لم يفهموا كيفيتها.

ولقوله - تعالى -: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ} [التوبة: ١٨].

يقول الإمام ابن كثير في "تفسيره": "وقوله: {وَأَقَامَ الصَّلَاةَ}؛ أي: التي هي أكبر عبادات البدن، {وَآتَى الزَّكَاةَ}؛ أي: التي هي أفضل الأعمال المتعدِّية إلى برِّ الخلائق، {وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا

٢٩ –ويقول العلامة الدكتور/ بكر أبو زيد في كتابه الرائع "درء الفتنة عن أهل السنة": "الإيمان هو: الدين، وهو اعتقاد بالجنان "بالقلب"، وقول باللسان، وعمل بالأركان، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، وعلى ذلك حُكِيَ الإجماع المستند إلى الأدلة المتكاثرة من الكتاب والسنة، عن كل مَن يدور عليه الإجماع من الصحابة والتابعين".

اللَّهَ}؛ أي: ولم يَخَفْ إلا من الله - تعالى - ولم يخش سواه؛ {فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ}.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [التوبة: ١٨]، يقول: "مَن وحَّد الله، وآمن باليوم الآخر، يقول: مَن آمن بما أنزل الله، {وَأَقَامَ الصَّلَاةَ}؛ يعني: الصلوات الخمس، {وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ}؛ يقول: لم يعبدْ إلا الله، ثم قال: {فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ}، يقول: إن أولئك هم المفلحون؛ كقولِه لنبيه - صلى الله عليه وسلم -: {عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} [الإسراء: ٧٩]، يقول: إن ربك سيبعثك مقامًا محمودًا، وهي الشفاعة، وكل "عسى" في القرآن فهي واجبة.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار - رحمه الله -: و"عسى" من الله حق.

وعن عبدالله قال: "مَن سرَّه أن يلقى الله غدًا مسلمًا، فليُحَافِظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن؛ فإن الله شرع لنبيكم - ﷺ - سُنَن الهدى، وإنهن من سُنَن الهدى، ولو أنكم صلَّيتم في بيوتكم كما يصلِّي هذا المتخلف في بيته لتركتُم سنة نبيكم، ولو تركتُم سنة نبيكم لضللتُم، وما من رجلٍ يتطهَّر فيُحسِن الطهور، ثم يَعمِدُ إلى مسجدٍ من هذه المساجد، إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنةً، ويرفعه بها درجةً، ويحطُّ عنه بها سيئةً، ولقد رأيتُنا وما يتخلَّف عنها إلا منافقٌ معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يُؤتَى به يُهادَى [٣٠] بين الرجلينِ حتى يقام في الصف" [٣١].

الشاهد: "فإن الله شرع لنبيكم - ﷺ - سُنَن الهدى".

وعن أبي أيوب الأنصاري أن أعرابيًّا عَرَض لرسول الله - ﷺ - وهو في سفر فأخذ بخطامِ ناقته أو بزمامِها، ثم قال: يا رسول الله - أو يا محمد - أخبِرْني بما يقرِّبني من الجنة، وما يباعدني من النار، قال: فكف النبي - ﷺ - ثم نظر في أصحابه، ثم قال: ((لقد وفِّق - أو لقد هُدِي -

---

٣٠- يهادى بين الرجلين؛ أي: يمسكه رجلان من جانبيه بعضديه يعتمد عليهما.

٣١ - مسلم (٦٥٤)، وأحمد في "المسند" (٤٣٥٥)، وأبو داود (٥٥٠)، وابن ماجه (٧٧٧)، والنسائي (٨٤٩)، وصحَّحه الألباني.



قال: كيف قلتَ؟))، قال: " فأعاد، فقال النبي - ﷺ -: ((تعبدُ الله لا تشرك به شيئًا، وتُقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم، دَعِ الناقة)) [٣٢].

(٩) العلم [٣٣]:

لقوله - تعالى -: {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الحج: ٥٤].

ويقول العلامة السعدي - رحمه الله - في تفسيره لقوله - تعالى -: {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ}؛ لأن الله منحهم من العلم، ما به يعرفون الحق من الباطل، والرشد من الغي، فيميزون بين الأمرين، الحق المستقر، الذي يُحكِمُه الله، والباطل العارض الذي ينسَخُه الله، بما على كل منهما من الشواهد، وليعلموا أن الله حكيم، يقيض بعض أنواع الابتلاء، ليظهرَ بذلك كمائن النفوس الخيرة والشريرة، {فَيُؤْمِنُوا بِهِ}، بسبب ذلك، ويزداد إيمانهم عند دفع المعارض والشبه.

{فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ}؛ أي: تخشع وتخضع، وتسلِّم لحكمته، وهذا من هدايته إياهم، {وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا} بسبب إيمانهم {إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} علم بالحق، وعمل بمقتضاه، فيثبِّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وهذا النوع من تثبيت الله لعبده.

وقال - تعالى - في وصفه لإبراهيم في دعوته لأبيه: {يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا} [مريم: ٤٣].

يقول العلامة السعدي - في تفسيره لقوله - تعالى -: {يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا} [مريم: ٤٣]؛ أي: يا أبتِ لا تحقرني، وتقول: إني ابنك، وإن عندك ما ليس عندي، بل قد أعطاني الله من العلم ما لم يعطِك، والمقصود من هذا قوله: {فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا}؛ أي: مستقيمًا معتدلاً، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعته في جميع الأحوال، وفي هذا من لطف الخطاب ولينِهِ ما لا يخفى، فإنه لم يقل: "يا أبتِ أنا عالم، وأنت جاهل"، أو "ليس عندك من العلم شيء"، وإنما أتى بصيغة تقتضي أن عندي

---

٣٢ - البخاري (١٣٩٦)، ومسلم (١٣) واللفظ له، وأحمد (٢٣٥٨٥)، تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

٣٣- "السبب الثامن والتاسع" قد استفدتهما قدرًا من محاضرةٍ لأخ في الله بمسجد الشهداء بمنطقة بحري بالإسكندرية، بعد صلاة العشاء، وكنت قد مررتُ عليه أثناء عملي لأداء صلاة العشاء، فجزاه الله عنا وعن كل مَن استفاد بهذه الإضافة خيرًا.

وعندك علمًا، وأن الذي وصل إليَّ لم يصل إليك ولم يأتِك، فينبغي لك أن تتبع الحجة وتنقاد لها".

(١٠) شكر العبد لنعم الله - تعالى - عليه:

لقوله - تعالى -: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [النحل: ١٢٠، ١٢١].
يقول الإمام ابن كثير - رحمه الله - في "تفسيره":
" يمدح - تعالى - عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ووالد الأنبياء، ويبرِّئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية، فقال: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا}، فأما الأمة: فهو الإمام الذي يقتدى به، والقانت: هو الخاشع المطيع، والحنيف: المنحرف قصدًا عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال: {وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، قال سفيان الثوري: عن سلمة بن كهيل، عن مسلم البطين، عن أبي العبيدين أنه سأل عبدالله بن مسعود عن الأمَّة القانت، فقال: الأمَّة: معلِّم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله، وعن مالك قال: قال ابن عمر: الأمة الذي يعلِّم الناس دينهم، وقال الأعمش، عن يحيى بن الجزار، عن أبي العبيدين أنه جاء إلى عبدالله، فقال: مَن نسأل إذا لم نسألْك؟ فكأن ابن مسعود رقَّ له، فقال: أخبرني عن الأمَّة، فقال: الذي يعلِّم الناس الخير.
وقال الشعبي: حدثني فروة بن نوفل الأشجعي قال: قال ابن مسعود: إن معاذًا كان أمة قانتًا لله حنيفًا، فقلتُ في نفسي: غلط أبو عبدالرحمن، وقال إنما قال الله: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً}، فقال: أتدري ما الأمة؟ وما القانت؟ قلت: الله أعلم، فقال: الأمة الذي يعلم الخير، والقانت المطيع لله ورسوله، وكذلك كان معاذ، وقد روي من غير وجه عن ابن مسعود؛ أخرجه ابن جرير.
وقال مجاهد: أمة؛ أي: أمة وحده، والقانت المطيع، وقال مجاهد أيضًا: كان إبراهيم أمَّة؛ أي: مؤمنًا وحده، والناس كلهم إذ ذاك كفار.
وقال قتادة: كان إمام هدى، والقانت المطيع لله.
وقوله: {شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ}؛ أي: قائمًا بشكر نِعَمِ الله عليه؛ كقوله - تعالى -: {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى} [النجم: ٣٧]؛ أي: قام بجميع ما أمره الله - تعالى - به.

وقوله: {اجْتَبَاهُ}؛ أي: اختاره واصطفاه؛ كقوله: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ} [الأنبياء: ٥١]، ثم قال: {وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}، وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضي.

وقوله: {وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً}؛ أي: جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة، {وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}.

وقال مجاهد في قوله: {وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً}؛ أي: لسانَ صِدق.

ويقول العلامة السعدي - رحمه الله -:

{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً}؛ أي: إمامًا جامعًا لخصال الخير، هاديًا مهتديًا.

{قَانِتًا لِلَّهِ}؛ أي: مديمًا لطاعة ربه، مخلصًا له الدِّين.

{حَنِيفًا}، مقبلاً على الله بالمحبة والإنابة والعبودية، معرضًا عمَّن سواه.

{وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} في قوله وعمله، وجميع أحواله؛ لأنه إمام الموحِّدين الحنفاء.

{شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ}؛ أي: آتاه الله في الدنيا حسنة، وأنعم عليه بنعم ظاهرة وباطنة، فقام بشكرها، فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة أن {اجْتَبَاهُ} ربه، واختصه بخُلته، وجعله من صفوة خَلقه، وخيار عباده المقربين، {وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} في علمه وعمله، فعلم بالحق وآثره على غيره.

(١٢) الإنابة إلى الله:

قال - تعالى -: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ} [الشورى: ١٣].

يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله -: "قد علمت أن مَن نزل في منزل التوبة وقام في مقامها نزل في جميع منازل الإسلام، فإن التوبة الكاملة متضمِّنة لها وهي مندرجة فيها، ولكن لا بد من إفرادها بالذكر والتفصيل تبيينًا لحقائقها وخواصِّها وشروطها، فإذا استقرَّت قدمُه في منزل التوبة، نزل بعده منزل الإنابة، وقد أمر الله - تعالى - بها في كتابه، وأثنى على خليله بها، فقال: {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ} [الزمر: ٥٤]، وقال: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ} [هود: ٧٥]، وأخبر أن آياته إنما يتبصر بها ويتذكر أهل الإنابة، فقال: {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا} إلى أن قال: {تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ} [ق: ٦- ٨]، وقال - تعالى -: {هُوَ

الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ} [غافر: ١٣]، وقال - تعالى -: {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ} [الروم: ٣١] الآية.

فـ: "مَنِيبِينَ" منصوب على الحال من الضمير المستكن في قوله: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ} [الروم: ٣٠]؛ لأن هذا الخطاب له ولأمته؛ أي: أقِمْ وجهَك أنت وأمتك منيبين إليه؛ نظيره قوله: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ} [الطلاق: ١]، ويجوز أن يكون حالاً من المفعول في قوله: {فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} [الروم: ٣٠]؛ أي: فطرهم منيبين إليه، فلو خُلُّوا وفِطَرهم لما عدلتْ عن الإنابة إليه، ولكنها تحوَّل وتتغيَّر عما فُطِرت عليه، كما قال - ﷺ -: ((ما من مولودٍ إلا يولد على الفطرة))[٣٤]، وفي رواية: ((على الملة حتى يعبر عنه لسانه))[٣٥]، وقال عن نبيّه داود: {فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ} [ص: ٢٤]، وأخبر أن ثوابه وجنته لأهل الخشية والإنابة، فقال: {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ} [ق: ٣١ - ٣٤]، وأخبر - سبحانه - أن البشرى منه إنما هي لأهل الإنابة، فقال: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى} [الزمر: ١٧].

"والإنابة" إنابتان: إنابة لربوبيته، وهي إنابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر؛ قال الله - تعالى -: {وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ} [الروم: ٣٣]؛ فهذا عامٌّ في حق كل داعٍ أصابه ضر كما هو الواقع، وهذه الإنابة لا تستلزم الإسلام، بل تجامع الشرك والكفر، كما قال - تعالى - في حق هؤلاء: {ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ} [الروم: ٣٣، ٣٤]، فهذا حالهم بعد إنابتهم.

والإنابة الثانية: إنابة أوليائه، وهي إنابة لإلهيته، إنابة عبودية ومحبة، وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عمَّا سواه، فلا يستحق اسمَ المُنِيب إلا مَن اجتمعت فيه هذه الأربعة، وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك.

وفي اللفظة معنى الإسراع والرجوع والتقدُّم، والمُنِيب إلى الله: المُسرِع إلى مرضاته، الراجع إليه كل وقت، المتقدم إلى محابِّه.

٣٤- البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨)، وأحمد (٧١٨١)، وأبو داود (٤٧١٤)، والترمذي (٢١٣٨) عن أبي هريرة.

٣٥ - مسلم (٢٦٥٨).

قال صاحب المنازل: الإنابة في اللغة: الرجوع، وهي ههنا الرجوع إلى الحق، وهى ثلاثة أشياء: الرجوع إلى الحق إصلاحًا، كما رجع إليه اعتذارًا، والرجوع إليه وفاءً كما رجع إليه عهدًا، والرجوع إليه حالاً، كما رجعت إليه إجابة.

لما كان التائب قد رجع إلى الله بالاعتذار والإقلاع عن معصيته، كان من تتمة ذلك: رجوعه إليه بالاجتهاد، والنصح في طاعته، كما قال: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} [مريم: ٦٠]، وقال: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا} [البقرة: ١٦٠]، فلا تنفع توبة وبطالة، فلا بد من توبة وعمل صالح، ترك لما يكره، وفعل لما يحب، تخلٍّ عن معصيته، وتحلٍّ بطاعته.

وكذلك الرجوع إليه بالوفاء بعهده، كما رجعت إليه عند أخذ العهد عليك، فرجعت إليه بالدخول تحت عهده أولاً، فعليك بالرجوع بالوفاء بما عاهدتَه عليه ثانيًا، والدين كله عهد ووفاء، فإن الله أخذ عهده على جميع المكلَّفين بطاعته، فأخذ عهده على أنبيائه ورسله على لسان ملائكته، أو منه إلى الرسول بلا واسطةٍ، كما كلَّم موسى، وأخذ عهده على الأمم بواسطة الرسل، وأخذ عهده على الجهَّال بواسطة العلماء، فأخذ عهده على هؤلاء بالتعليم، وعلى هؤلاء بالتعلُّم، ومدح المُوفِين بعهده، وأخبرهم بما لهم عنده من الأجر، فقال: {وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح: ١٠]، وقال: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ} [النحل: ٩١]، {وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا} [البقرة: ١٧٧]، وهذا يتناول عهودهم مع الله بالوفاء له بالإخلاص والإيمان والطاعة، وعهودهم مع الخلق.

وأخبر النبي - ﷺ - أن من علامات النفاق: ((الغدر بعد العهد)) [٣٦]، فما أناب إلى الله - عز وجل - مَن خان عهده وغدر به، كما أنه لم يُنِبْ إليه مَن لم يدخلْ تحت عهده، فالإنابة لا تتحقق إلا بالتزام العهد والوفاء به.

وقوله: والرجوع إليه حالاً كما رجعت إليه إجابة.

أي هو - سبحانه - قد دعاك فأجبته بلبَّيك وسَعْديك قولاً، فلا بد من الإجابة حالاً تصدِّق به المقال، فإن الأحوال تصدِّق الأقوال أو تكذِّبها، وكل قول فلصدقِه وكذبِه شاهدٌ من حال قائله، فكما رجعت إلى الله إجابةً بالمقال، فارجعْ إليه إجابة بالحال، قال الحسن - رحمه الله -: ابنَ آدم، لك قول وعمل، وعملك أولى بك من قولك، ولك سريرة وعلانية، وسريرتك أَمْلَكُ بك من علانيتك.

---

٣٦ – البخاري (٣٤)، ومسلم (١٠٦) من حديث عبدالله بن عمرو – رضي الله عنهما.

قال: وإنما يستقيم الرجوع إليه إصلاحًا بثلاثة أشياء: بالخروج من التبعات، والتوجع للعثرات، واستدراك الفائتات.

والخروج من التبعات: هو بالتوبة من الذنوب التي بين العبد وبين الله، وأداء الحقوق التي عليه للخلق، والتوجع للعثرات يحتمل شيئين:

أحدهما: أن يتوجَّع لعثرته إذا عثر، فيتوجَّع قلبه وينصدع، وهذا دليل على إنابته إلى الله، بخلاف مَن لا يتألم قلبُه، ولا ينصدع من عثرته، فإنه دليل على فساد قلبه وموته.

الثاني: أن يتوجَّع لعثرة أخيه المؤمن إذا عثر، حتى كأنه هو الذي عثر بها، ولا يشمت به فهو دليل على رقة قلبه وإنابته.

واستدراك الفائتات: هو استدراك ما فاته من طاعة وقربة بأمثالها أو خير منها، ولا سيما في بقية عمره عند قرب رحيله إلى الله، فبقية عمر المؤمن لا قيمة لها، يستدرك بها ما فات، ويحيي بها ما أمات.

وقال: وإنما يستقيم الرجوع إليه عهدًا بثلاثة أشياء: بالخلاص من لذة الذنب، وبترك الاستهانة بأهل الغفلة تخوفًا عليهم، مع الرجاء لنفسك وبالاستقصاء في رؤية علة الخدمة.

إذا صَفَتْ له الإنابة إلى ربِّه تخلَّص من الفكرة في لذَّة الذنب، وعاد مكانها ألمًا وتوجعًا لذكره والفكرة فيه، فما دامت لذة الفكرة فيه موجودة في قلبه، فإنابته غير صافية.

فإن قيل: أي الحالين أعلى؟ حال مَن يجد لذة الذنب في قلبه فهو يجاهدها لله، ويتركها من خوفه ومحبته وإجلاله، أو حال مَن ماتت لذة الذنب في قلبه وصار مكانها ألم وتوجع وطمأنينة إلى ربه، وسكون إليه، والتذاذ بحبه، وتنعُّم بذكره؟!

قيل: حال هذا أكمل وأرفع، وغاية صاحب المجاهدة: أن يجاهد نفسه حتى يصل إلى مقام هذا ومنزلته، ولكنه يتلوه في المنزلة والقرب ومنوط به.

فإن قيل: فأين أجر مجاهدة صاحب اللذة وتركه محابه لله، وإيثاره رضا الله على هواه؟ وبهذا كان النوع الإنساني أفضل من النوع الملكي عند أهل السنة، وكانوا خير البرية، والمطمئن قد استراح من ألم هذه المجاهدة وعُوفي منها، فبينهما من التفاوت ما بين درجة المعافَى والمُبتَلَى.

قيل: النفس لها ثلاثة أحوال: الأمر بالذنب، ثم اللوم عليه، والندم منه، ثم الطمأنينة إلى ربها، والإقبال بكليتها عليه، وهذه الحال أعلى أحوالها وأرفعها، وهي التي يشمِّر إليها المجاهد، وما يحصل له من ثواب مجاهدته وصبره، فهو لتشميره إلى درجة الطمأنينة إلى الله، فهو بمنزلة راكب القفار، والمهامِهِ والأهوال، ليصل إلى البيت فيطمئن قلبه برؤيته والطواف به، والآخر بمنزلة

مَن هو مشغول به طائفًا وقائمًا، وراكعًا وساجدًا، ليس له التفاتٌ إلى غيره، فهذا مشغول بالغاية، وذاك بالوسيلة، وكلٌّ له أجر، ولكن بين أجر الغايات وأجر الوسائل بَون، وما يحصل للمطمئن من الأحوال والعبودية والإيمان فوق ما يحصل لهذا المجاهد نفسه في ذات الله، وإن كان أكثر عملاً، فقدرُ عملِ المطمئن المُنِيب بجملته وكيفيته أعظم، وإن كان هذا المجاهد أكثر عملاً، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فما سبق الصدِّيقُ الصحابةَ بكثرة عمل، وقد كان فيهم مَن هو أكثر صيامًا وحجًّا وقراءة وصلاة منه، ولكن بأمرٍ آخر قام بقلبه، حتى إن أفضل الصحابة كان يسابقه ولا يراه إلا أمامه، ولكن عبودية مجاهد نفسه على لذة الذنب والشهوة، قد تكون أشق، ولا يلزم من مشقتها تفضيلها في الدرجة.

ومن علامات الإنابة: ترك الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم، مع فتحك باب الرجاء لنفسك، فترجو لنفسك الرحمة، وتخشى على أهل الغفلة النقمة، ولكن ارجُ لهم الرحمة، واخشَ على نفسِك النقمة، فإن كنت لا بدَّ مستهينًا بهم، ماقتًا لهم لانكشاف أحوالهم لك ورؤية ما هم عليه؛ فكن لنفسك أشد مقتًا منك لهم، وكن لهم أرجى لرحمة الله منك لنفسك، قال بعض السلف: لن تفقهَ كل الفقه حتى تمقتَ الناس في ذات الله، ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشد مقتًا.

وهذا الكلام لا يفقهُ معناه إلا الفقيه في دين الله؛ فإن مَن شَهِد حقيقة الخلق وعجزهم وضعفهم وتقصيرهم، بل تفريطهم وإضاعتهم لحق الله، وإقبالهم على غيره، وبيعهم حظهم من الله بأبخس الثمن من هذا العاجل الفاني - لم يجد بُدًّا من مقتهم، ولا يمكنه غير ذلك ألبتة، ولكن إذا رجع إلى نفسه وحاله وتقصيره، وكان على بصيرة من ذلك، كان لنفسه أشد مقتًا واستهانة، فهذا هو الفقيه.

وأما الاستقصاء في رؤية علل الخدمة، فهو التفتيش عما يشوبها من حظوظ النفس، وتمييز حق الرب منها من حظ النفس، ولعل أكثرها أو كلها أن تكون حظًّا لنفسك وأنت لا تشعر.

فلا إله إلا الله، كم في النفوس من عللٍ وأغراض وحظوظ تمنع الأعمال أن تكون لله خالصة، وأن تصل إليه! وإن العبد ليعملُ العمل حيث لا يراه بشرٌ ألبتة وهو غير خالص لله، ويعمل العمل والعيون قد استدارتْ عليه نطاقًا وهو خالص لوجه الله، ولا يميز هذا إلا أهل البصائر وأطباء القلوب، العالمون بأدوائها وعللها، فبين العمل وبين القلب مسافة، وفي تلك المسافة قطَّاع تمنع وصول العمل إلى القلب، فيكون الرجل كثيرَ العمل، وما وصل منه إلى قلبه محبة، ولا خوف، ولا رجاء، ولا زهد في الدنيا، ولا رغبة في الآخرة، ولا نور يفرِّق به بين أولياء



الله وأعدائه، وبين الحق والباطل، ولا قوة في أمره، فلو وصل أثر الأعمال إلى قلبه لاستنار وأشرق، ورأى الحق والباطل، وميَّز بين أولياء الله وأعدائه، وأوجب له ذلك المزيد من الأحوال.

ثم بين القلب وبين الرب مسافة، وعليها قطَّاع تمنع وصول العمل إليه؛ من كبر، وإعجاب وإدلال، ورؤية العمل، ونسيان المنة، وعلل خفية لو استقصى في طلبها لرأى العجب، ومن رحمة الله - تعالى - سترها على أكثر العمال؛ إذ لو رأوها وعاينوها لوقعوا فيما هو أشد منها؛ من اليأس والقنوط والاستحسار، وترك العمل، وخمود العزم، وفتور الهمة؛ ولهذا لما ظهرتْ رعاية أبي عبدالله الحارث بن أسد المحاسبي واشتغل بها العباد، عطلت منهم مساجد كانوا يعمرونها بالعبادة، والطبيب الحاذق يعلم كيف يطب النفوس، فلا يعمر قصرًا ويهدم مصرًا.

وقال: وإنما يستقيم الرجوع إليه حالاً بثلاثة أشياء: بالإياس من عملك، وبمعاينة اضطرارك، وشيم برق لطفه بك.

"الإياس من العمل" يفسَّر بشيئين؛ أحدهما: أنه إذا نظر بعينِ الحقيقة إلى الفاعل الحق، والمحرِّك الأول، وأنه لولا مشيئته لما كان منك فعل، فمشيئته أوجبت فعلَك لا مشيئتك - بقِيَ بلا فعلٍ، فها هنا تنفع مشاهدة القدر، والفناء عن رؤية الأعمال.

والثاني: أن تيئس من النجاة بعملك، وترى النجاة إنما هي برحمته - تعالى - وعفوه وفضله، كما في الصحيح عن النبي - ﷺ - أنه قال: ((لن ينجي أحدًا منكم عملُه))، قالوا: ولا أنت، يا رسول الله! قال: ((ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني الله برحمة منه وفضل))؛ فالمعنى الأول يتعلق ببداية الفعل، والثاني بغايته ومآله.

وأما معاينة الاضطرار: فإنه إذا أَيِس من عمله بداية، وأيس من النجاة به نهاية، شَهِد به في كل ذرة منه ضرورة تامة إليه، وليست ضرورته من هذه الجهة وحدَها، بل من جميع الجهات، وجهات ضرورته لا تنحصر بعددٍ ولا لها سبب، بل هو مضطر إليه بالذات، كما أن الله - عز وجل - غني بالذات، فإن الغنى وصف ذاتي للرب، والفقر والحاجة والضرورة وصف ذاتي للعبد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه -:

والفقرُ لي وصفُ ذاتٍ لازم أبدًا = كما الغنى أبدًا وصفٌ له ذاتِي

وأما شَيْم برق لطفِه بك، فإنه إذا تحقَّق له قوة ضرورية، وأيس من عمله والنجاة به، نظر إلى ألطاف الله وشام برقَها، وعلِم أن كل ما هو فيه وما يرجوه وما تقدم له لطفٌ من الله به، ومنة



منَّ بها عليه، وصدقةٌ تصدَّق بها عليه بلا سبب منه؛ إذ هو المُحسِن بالسبب والمسبب، والأمر له من قبل ومن بعد، وهو الأول والآخر، لا إله غيره، ولا رب سواه.

(١٣) الاعتصام بالله - تعالى -:

لقوله - تعالى -: {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [آل عمران: ١٠١].

يقول الإمام ابن كثير - رحمه الله -: "يحذِّر - تعالى - عبادَه المؤمنين عن أن يُطِيعوا طائفةً من الذين أوتوا الكتاب، الذين يَحسُدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، وما منحهم به من إرسال رسوله؛ كما قال - تعالى -: { وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ} [البقرة: ١٠٩]، وهكذا قال ها هنا: {إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ} [آل عمران: ١٠٠]؛ ثم قال: {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ} [آل عمران: ١٠١]؛ يعني: أن الكفر بعيدٌ منكم، وحاشاكم منه؛ فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلاً ونهارًا، وهو يتلوها عليكم ويبلغها إليكم، وهذا كقوله - تعالى -: {وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [الحديد: ٨]، والآية بعدها، ثم قال - تعالى -: {وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [آل عمران: ١٠١]؛ أي: ومع هذا، فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية، والعدة في مباعدة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد، وحصول المراد.

ويقول الإمام الطبري في تفسيره:

"القول في تأويل قوله - تعالى -: {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [آل عمران: ١٠١].

قال أبو جعفر: يعني بذلك - جل ثناؤه -: {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ} أيها المؤمنون بعد إيمانكم بالله وبرسوله، فترتدوا على أعقابكم، {وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ}؛ يعني: حجج الله عليكم التي أنزلها في كتابه على نبيه محمد - ﷺ -، {وَفِيكُمْ رَسُولُهُ} حجة أخرى عليكم لله، مع آي كتابه، يدعوكم جميع ذلك إلى الحق، ويبصِّركم الهدى والرشاد، وينهاكم عن الغي والضلال؟ يقول لهم - تعالى ذكره -: فما وجهُ عذركم عند ربكم في جحودِكم نبوة نبيكم، وارتدادكم على أعقابكم، ورجوعكم إلى أمر جاهليتكم، إن أنتم راجعتم ذلك وكفرتم، وفيه هذه الحجج الواضحة والآيات البينة على خطأ فعلكم ذلك إن فعلتموه؟

كما حدثنا بشر قال: حدثنا يزيد بن زريع قال: حدثنا سعيد، عن قتادة، قوله: {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ} الآية، علمان بيّنان: وجدان نبي الله - ﷺ - وكتاب الله؛ فأما نبي الله، فمضى - صلى الله عليه وسلم - وأما كتاب الله، فأبقاه الله بين أظهركم؛ رحمة من الله ونعمة، فيه حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته.

وأما قوله: {وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}؛ فإنه يعني: ومَن يتعلق بأسباب الله، ويتمسَّك بدينه وطاعته، فقد هدي، يقول: فقد وفِّق لطريق واضح، ومحجَّة مستقيمة غير معوجة، فيستقيم به إلى رضا الله، وإلى النجاة من عذاب الله والفوز بجنته".

ويقول الإمام الطبري - رحمه الله - في تفسيره:

"القول في تأويل قوله: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [النساء: ١٧٥].

وقال أبو جعفر: يعني بذلك - جل ثناؤه -: فأما الذين صدقوا الله وأقروا بوحدانيته، وما بعث به محمدًا - ﷺ - من أهل الملل، {وَاعْتَصَمُوا بِهِ}، يقول: وتمسَّكوا بالنور المبين الذي أنزله إلى نبيه.

وعن ابن جريج: {وَاعْتَصَمُوا بِهِ}، قال: بالقرآن.

{فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ}، يقول: فسوف تنالُهم رحمتُه التي تُنجِيهم من عقابه، وتُوجِب لهم ثوابه ورحمته وجنته، ويلحقهم من فضله ما لحق أهل الإيمان به والتصديق برسله، {وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا}، يقول: ويوفِّقهم لإصابة فضلِه الذي تفضَّل به على أوليائه، ويسددهم لسلوك منهج مَن أنعم عليه من أهل طاعته، ولاقتفاء آثارهم واتباع دينهم، وذلك هو "الصراط المستقيم"، وهو دين الله الذي ارتضاه لعباده، وهو الإسلام، ونصب "الصراط المستقيم" على القطع من "الهاء" التي في قوله: {إِلَيْهِ}.

(١٤) سلامة القلب:

قال - تعالى -: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، وامتدح الله - تعالى - نبيَّه وخليله إبراهيم لسلامة قلبه، فقال - تعالى -: {سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ * وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الصافات: ٧٩ - ٨٤].

ولقوله - تعالى -: {وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} [الحجرات: ٧].

وعن النعمان بن بشير - رضي الله عنه - قال: سمعتُ رسول الله - ﷺ - يقول: ((إن الحلال بيّن، وإن الحرام بيّن، وبينهما مشتبهاتٌ لا يعلمهنَّ كثير من الناس، فمَن اتقى الشبهات، استبرأ لدينه وعِرْضه، ومَن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يُوشِك أن يرتعَ فيه، ألا وإن لكلِّ ملك حمًى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صَلَحت صَلَح الجسد كله، وإذا فَسَدت فَسَد الجسد كله، ألا وهي القلب)) [٣٧].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: ((إن الله لا ينظرُ إلى صورِكم وأموالِكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)) [٣٨].

وعن حذيفة - رضي الله عنه - قال: سمعتُ رسول الله - ﷺ - يقول: ((تُعرَض الفتنُ على القلوبِ كالحصير عودًا عودًا، فأيُّ قلبٍ أُشرِبَها، نُكِت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها، نُكِت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربادًّا، كالكوز مُجَخيًا، لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا، إلا ما أشرب من هواه)) [٣٩].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: ((لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يَبِعْ بعضكم على بيعِ بعض، وكونوا عبادَ الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ها هنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئٍ من الشرِّ أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعِرْضه)) [٤٠].

الشاهد من الحديث: قوله - ﷺ -: ((التقوى ها هنا))، ويشير إلى صدره ثلاث مرات.

---

٣٧ – البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)، واللفظ له.

٣٨ – مسلم (٢٥٦٤)، وأحمد (٧٨١٤، ١٠٩٧٣)، وابن ماجه (٤١٤٣)، وابن حبان في " صحيحه" (٣٩٤).

٣٩ – مسلم (١٤٤)، وأحمد في "المسند" (٢٣٣٢٨)، تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

٤٠ – البخاري (٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٦٤)، واللفظ له.



إن هذا الدين إنما نزل في حقيقته لتزكية القلوب وإصلاحها؛ ولهذا يقول - ﷺ -: ((أنا دعوة أبي إبراهيم)) [٤١].

ودعوة أبينا إبراهيم ﷺ هي ما في قوله - تعالى -: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [البقرة: ١٢٩]؛ فإبراهيم - عليه السلام - دعا الله لما بَنَى هذا البيت العظيم "العتيق" أن يبعثَ في هذه الأمة هذا الرسول - ﷺ - وبهذه الأهداف والأغراض، وقد استجاب الله - سبحانه وتعالى - دعوة إبراهيم - عليه السلام؛ كما في قوله - تعالى -: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [الجمعة: ٢].

فنلاحظ هنا أن هذه الأمور الثلاثة المَدْعُوَّ بها اختلفت ترتيبها، فتقدَّمت التزكية على التعليم، ولا شك أن الإنسان لا يمكن أن يتزكى إلا بأن يتعلم الكتاب والسنة، فيتعلم الهُدَى الذي جاء به النبي - ﷺ - لكن عندما تتقدَّم التزكية، فهي من باب تقديم الغرض والغاية على الوسيلة التي تؤدي إلى هذه الغاية.

فالأصل هو تزكية هذه القلوب التي هي موضع نظر الله من العبد؛ كما في الحديث: ((إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)).

وهذه القلوب هي محل الابتلاء والتمحيص، ومحل الأعمال التي لو استعرضناها لعجبتم ولعلمتم أن لهذه القلوب شأنًا عظيمًا عند الله - تبارك وتعالى - كيف لا، والقلب هو الذي إذا كان حيًّا فإن الجسد يحيا معه، وإذا مات مات الجسد.

دعاؤه - ﷺ - لربه بأن يهدي قلبه، ويسلل سخيمته:

عن ابن عباس، قال: كان النبي - ﷺ - يدعو: ((رب، أعنِّي ولا تُعِن عليَّ، وانصرني ولا تنصر عليَّ، وامكر لي ولا تمكر عليَّ، واهدِني ويسِّر هداي إليَّ، وانصُرْني على مَن بغى عليَّ، اللهم اجعلْني لك شاكرًا، لك ذاكرًا، لك راهبًا، لك مطواعًا، إليك مخبتًا أو منيبًا، رب، تقبَّل

---

٤١ – صحيح: رواه أحمد (١٧١٩٠) عن العرباض بن سارية، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (١٥٤٥، ١٥٤٦).

توبتي، واغسلْ حوبتي، وأَجِبْ دعوتي، وثبِّت حجتي، واهدِ قلبي، وسدِّد لساني، واسللْ سخيمة قلبي))[42].

(١٥) المجاهدة في الله:

لقوله - تعالى -: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: ٦٩].

يقول فضيلة الشيخ سيد قطب - رحمه الله - في تفسيره:

"ليطمئن كل مَن يتجه إلى هدى الله أن مشيئة الله ستقسم له الهدى وتؤتيه الحكمة، وتمنحه ذلك الخير الكثير، إن أمام الإنسان طريقينِ اثنين لا ثالثَ لهما: طريق الله، وطريق الشيطان، أن يستمع إلى وعد الله، أو أن يستمع إلى وعد الشيطان، ومَن لا يسير في طريق الله ويسمع وعده، فهو سائر في طريق الشيطان ومتَّبع وعده، ليس هنالك إلا منهج واحد هو الحق، المنهج الذي شرعه الله، وما عداه فهو للشيطان ومن الشيطان، هذه الحقيقة يقرِّرها القرآن الكريم ويكرِّرها، ويؤكدها بكل مؤكد؛ كيلا تبقى حجة لمن يريد أن ينحرف عن منهج الله، ثم يدَّعي الهُدَى والصواب في أي باب، ليست هنالك شبهة ولا غشاوة، الله، أو الشيطان، منهج الله، أو منهج الشيطان، طريق الله، أو طريق الشيطان، ولمن شاء أن يختار؛ {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ} [الأنفال: ٤٢]، لا شبهة، ولا غبش، ولا غشاوة، وإنما هو الهُدَى أو الضلال، وهو الحق واحد لا يتعدد، {فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ} [يونس: ٣٢]"[43].

(١٦) اتباع رضوان الله:

لقوله - تعالى -: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [المائدة: ١٥، ١٦].

---

٤٢ –صحيح: رواه أحمد (١٩٩٧)؛ قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات رجال الصحيح، غير طليق بن قيس، وأبو داود (١٥١٠)، وابن ماجه (٣٨٣٠)، وصححه الألباني.

٤٣ – "في ظلال القرآن" لسيد قطب (البقرة:٢٦١).



يقول العلامة السعدي - رحمه الله - في "تفسيره":
"لما ذكر - تعالى - ما أخذه الله على أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وأنهم نقضوا ذلك إلا قليلاً منهم، أمرَهم جميعًا أن يؤمنوا بمحمدٍ - ﷺ - واحتجَّ عليهم بآيةٍ قاطعة، دالة على صحة نبوته، وهي: أنه بيَّن لهم كثيرًا مما يُخفُون عن الناس، حتى عن العوامِّ من أهل ملتهم، فإذا كانوا هم المشار إليهم في العلم، ولا علم عند أحد في ذلك الوقت إلا ما عندهم؛ فالحريص على العلم لا سبيل له إلى إدراكه إلا منهم، فإتيان الرسول - صلى الله عليه وسلم - بهذا القرآن العظيم الذي بيَّن به ما كانوا يتكاتمونه بينهم، وهو أُمِّي لا يقرأ ولا يكتب من أدلِّ الدلائل على القطع برسالته، وذلك مثل صفة محمد في كتبهم، ووجود البشائر به في كتبهم، وبيان آية الرجم، ونحو ذلك.
{وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ}؛ أي: يترك بيان ما لا تقتضيه الحكمة.
{قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ}، وهو القرآن، يُستَضَاء به في ظلمات الجهالة وعماية الضلالة.
{وَكِتَابٌ مُبِينٌ} لكلِّ ما يحتاج الخلق إليه من أمور دينهم ودنياهم؛ من العلم بالله، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، ومن العلم بأحكامه الشرعية وأحكامه الجزائية.
ثم ذكر من الذي يهتدي بهذا القرآن، وما هو السبب الذي من العبد لحصول ذلك، فقال: {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ}؛ أي: يَهْدِي به مَن اجتهد وحَرَص على بلوغ مرضاة الله - وصار قصدُه حسنًا - سبلَ السلام التي تسلم صاحبَها من العذاب، وتوصلُه إلى دار السلام، وهو العلم بالحق والعمل به، إجمالاً وتفصيلاً.
{وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ} ظلماتِ الكفر، والبدعة، والمعصية، والجهل، والغفلة، إلى نور الإيمان والسنة والطاعة والعلم والذكر، وكل هذه الهداية بإذن الله، الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، {وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}.

(١٧) ارتباط الهداية بالصبر على البلاء وحسن التوكل على الله:

لقوله - تعالى -: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [البقرة: ١٥٣ - ١٥٧].

شرح الكلمات:



الاستعانة: طلب المعونة، والقدرة على القول أو العمل.
الصبر: حمل النفس على المكروه، وتوطينها على احتمال المكاره.
الشعور: الإحساس بالشيء المفضي إلى العلم به.
الابتلاء: الاختبار والامتحان لإظهار ما عليه الممتحَن من قوة أو ضعف.
الأموال: جمع مال، وقد يكون ناطقًا وهو المواشي، ويكون صامتًا، وهو النَّقْدان، وغيرها.
المصيبة: ما يصيب العبد من ضرر في نفسه أو أهله أو ماله.
الصلوات: جمع صلاة، وهي من الله - تعالى هنا - المغفرة لعطف الرحمة عليها.
ورحمة: الرحمة الإنعام، وهو جلب ما يسرُّ، ودفع ما يضر، وأعظم ذلك دخول الجنة بعد النجاة من النار.
المهتدون: إلى طريق السعادة والكمال بإيمانهم، وابتلاء الله - تعالى - لهم، وصبرهم على ذلك.

معنى الآيات:

نادى الرب - تعالى - عبادَه المؤمنين وهم أهل ملة الإسلام المسلمون؛ ليرشدهم إلى ما يكون عونًا لهم على الثبات على قِبْلَتهم التي اختارها لهم، وعلى ذكرِ ربهم وشكره، وعدم نسيانه وكفره، فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا}؛ أي: على ما طُلِب منكم من الثبات والذكر والشكر، وترك النسيان والكفر، بالصبر الذي هو توطين النفس وحملها على أمر الله - تعالى - به، وبإقام الصلاة، وأعلمهم أنه مع الصابرين، يمدهم بالعون والقوة، فإذا صَبَروا نالهم عون الله - تعالى - وتقويته، وهذا ما تضمنته الآية الأولى.

أما الآية الثانية (١٥٤)، فقد تضمَّنت نهيَه - تعالى - لهم أن يقولوا مُعتَقِدين أن مَن قُتِل في سبيل الله ميتٌ؛ إذ هو حي في البرزخ، وليس بميّت، بل هو حي يُرزَق في الجنة؛ كما قال - ﷺ -: ((أرواحهم في جوف طيرٍ خضرٍ لها قناديل معلَّقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل))[٤٤]؛ فلذا لا يقال لمن قتل في سبيل الله: مات، ولكن استُشهد، وهو شهيد وحي عند ربه حياة لا نُحسُّها ولا نشعر بها بمفارقتها للحياة في هذه الدار[٤٥].

---

٤٤ – مسلم (١٨٨٧)، والترمذي (٣٠١١)، وابن ماجه (٢٨٠١) عن ابن مسعود – رضي الله عنه.

٤٥ – لا يقال لمن قتل في سبيل الله: مات، بمعنى انقطعت عنه الحياة، فالشهيد لم يمت، وإنما انتقل من حياة ناقصة إلى حياة كاملة دائمة، كما أن لفظ الموت مفزع للإنسان، فإذا دارت المعركة وسقط الشهداء، وقيل: مات فلان وفلان، يؤثر ذلك فيَ نفس من سمع كلمة الموت؛ ولذا لا يقال: مات، ولكن: استشهد.

وأما الآية الثالثة (١٥٥) فإنه يُقسِم - تعالى - لعباده المؤمنين على أنه يبتليهم بشيء من الخوف بواسطة أعدائه وأعدائهم وهم الكفار عندما يشنون الحروب عليهم، وبالجوع لحصار العدو ولغيره من الأسباب، وبنقص الأموال الماشية للحرب والقحط، وبالأنفس؛ كموت الرجال، وبفساد الثمار بالجوائح، كل ذلك لإظهار من يصبر على إيمانه وطاعة ربه بامتثال أمره واجتناب نهيه، ومن لا يصبر، فيحرم ولاية الله وأجره، ثم أمْره رسولَه بأن يبشر الصابرين، وبيَّن في الآية الرابعة (١٥٦) حال الصابرين، وهي أنهم إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنا لله، فله أن يصيبنا بما شاء؛ لأنَّا ملكه وعبيده، وإنا إليه راجعون بالموت، فلا جزع إذًا، ولكن تسليم لحكمه، ورضًا بقضائه وقدره، وفي الآية الخامسة (١٥٧) أخبر - تعالى - مبشرًا أولئك الصابرين بمغفرة ذنوبهم وبرحمة من ربهم، وأنهم المهتدون إلى سعادتهم وكمالهم، فقال: {أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [البقرة: ١٥٧].

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١ - فضيلة الصبر، والأمر به، والاستعانة بالصبر والصلاة على المصائب والتكاليف، في الحديث كان النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة.

٢ - فضل الشُّهداء على غيرهم بحياتهم عند ربهم حياة أكمل من حياة غيرهم في الجنة.

٣ - قد يُبتلى المؤمن بالمصائب في النفس والأهل والمال، فيصبر، فترتفع درجته، ويعلو مقامه عند ربه.

٤ - فضيلة الاسترجاع عند المصيبة، وهو قول: {إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة: ١٥٦]، وفي الصحيح يقول - ﷺ -: ((ما من عبدٍ تُصِيبه مصيبة، فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرْني في مصيبتي، وأخلفْ لي خيرًا منها، إلا أجره الله في مصيبته، وأخلف له خيرًا منها))[٤٦].

وقال - تعالى -: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [التغابن: ١١].

يقول الإمام ابن كثير - رحمه الله - في "تفسيره": يقول - تعالى - مخبرًا بما أخبر به في سورة الحديد: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ

٤٦ – مسلم (٩١٨)، وأحمد (٢٦٦٧٧)، وأبو داود (٣١١٩) عن أم سلمة – رضي الله عنها.



ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [الحديد: ٢٢]، وهكذا قال ها هنا: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}، قال ابن عباس: بأمرِ الله؛ يعني: عن قدره ومشيئته.

{وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}؛ أي: ومَن أصابته مصيبة فعَلِم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب، واستسلم لقضاء الله - هَدَى الله قلبه، وعوَّضه عمَّا فاته من الدنيا هدى في قلبه، ويقينا صادقًا، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه، أو خيرًا منه.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ}؛ يعني: يَهْدِ قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

وقال - تعالى - عن موسى - عليه الصلاة والسلام - لقومه: {وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ * أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} [إبراهيم: ٨ - ١٢].

وقال موسى: إن كفرتم أنتم - يا بني إسرائيل - والناس كلهم، فإنما ضررتُم أنفسكم، وحرمتموها الخير الذي لا بدَّ لكم منه، وأنتم إليه محاويج، والله غني عن شكركم، حميد مستوجب للحمد بكثرةِ أنعمِه وأياديه، وإن لم يحمدْه الحامدون.

وقوله - تعالى -: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ}، جملة من مبتدأ وخبر، وقعتِ اعتراضًا، أو عطف الذين مِن بعدهم على قوم نوح، و{لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ} اعتراضٌ، والمعنى: أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله.

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبًا لا يعرفون، وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال: كذب النَّسابون، يعني أنهم يدعون علم الأنساب، وقد نفى الله علمها عن العباد.

{فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ}، فعضُّوها غيظًا وضجرًا مما جاءتْ به الرسل؛ كقولِه: {عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ} [آل عمران: ١١٩]، أو ضحكًا واستهزاءً كَمَن غَلَبه الضحك فوضع يدَه على

فيه، أو وأشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم، وما نطقتْ به من قولهم: {إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ} [إبراهيم: ٩]؛ أي: هذا جوابنا لكم، ليس عندنا غيره، إقناطًا لهم من التصديق، ألا ترى إلى قوله: {فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ} [إبراهيم: ٩]، وهذا قول قوي، أو وضعوها على أفواههم يقولون للأنبياء: أطبقوا أفواهكم واسكتوا، أو ردوها في أفواه الأنبياء يشيرون لهم إلى السكوت، أو وضعوها على أفواههم يسكتونهم ولا يذرونهم يتكلمون، وقيل: الأيدي، جمع يدٍ، وهي النعمة بمعنى الأيادي؛ أي: ردُّوا نعم الأنبياء التي هي أجلُّ النِّعَم من مواعظهم ونصائحهم وما أوحي إليهم من الشرائع والآيات في أفواههم؛ لأنهم إذا كذبوها ولم يقبلوها، فكأنهم ردوها في أفواههم، ورجعوها منه على طريق المثل، {مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ} [إبراهيم: ٩]، من الإيمان بالله، وقُرِئ: (تدعونا) بإدغام النون {مُرِيبٍ} مُوقِع في الريبة، أو: ذي ريبة، من أرابه، وأراب الرجل، وهي قلق النفس، وألا تطمئن إلى الأمر.

{قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ} [إبراهيم: ١٠].

{أَفِي اللَّهِ شَكٌّ}: أُدخِلت همزة الإنكار على الظرف؛ لأن الكلام ليس في الشك، إنما هو في المشكوك فيه، وأنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة وشهادتها عليه.

{يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ}؛ أي: يدعوكم إلى الإيمان؛ ليغفر لكم، أو يدعوكم لأجل المغفرة؛ كقوله: دعوته لينصرني، ودعوته ليأكل معي، وقال:

دعوتُ لِمَا نابني مسورًا = فلبَّى فلبَّى يدي مسور

فإن قلت: ما معنى التبعيض في قوله: {مِنْ ذُنُوبِكُمْ}؟ قلت: ما علمته جاء هكذا إلا في خطاب الكافرين؛ كقوله: {وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ} [نوح: ٣، ٤]، طريق مستقيم {يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ} [الأحقاف: ٣١]، وقال في خطاب المؤمنين: {هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [الصف: ١٠]، إلى أن قال: {يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} [الصف: ١٢]، وغير ذلك مما يقفك عليه الاستقراء، وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين، ولئلا يسوي بين الفريقين في الميعاد، وقيل: أريد أنه يغفر لهم ما بينهم وبين الله، بخلاف ما بينهم وبين العباد من المظالم ونحوها.

{وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} إلى وقتٍ قد سمَّاه الله وبيَّن مقداره، يبلغكموه إن آمنتم، وإلا عاجَلَكم بالهلاك قبل ذلك الوقت.



{إِنْ أَنْتُمْ} (ما أنتم) إلا بشرٌ مثلنا، لا فضلَ بيننا وبينكم، ولا فضل لكم علينا، فلِمَ تخصون بالنبوة دوننا؟! ولو أرسل الله إلى البشر رسلاً لجعلهم من جنسٍ أفضل منهم وهم الملائكة.

{بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ} بحجة بيّنة، وقد جاءتهم رسلُهم بالبينات والحجج، وإنما أرادوا بالسلطان المبين آية قد اقترحوها تعنتًا ولجاجًا.

{قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} [إبراهيم: ١١، ١٢].

{قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ}: تسليم لقولهم، وأنهم بشر مثلهم، يعنون أنهم مثلهم في البشرية وحدها، فأما ما وراء ذلك، فما كانوا مثلهم، ولكنهم لم يذكروا فضلهم تواضعًا منهم، واقتصروا على قولهم: {وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} [إبراهيم: ١١]؛ لأنه قد علم أنه لا يختصهم بتلك الكرامة إلا وهم أهل لاختصاصهم بها، لخصائص فيهم قد استأثروا بها على أبناء جنسهم.

{إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} أرادوا أن الإتيان بالآية التي اقترحتموها ليس إلينا ولا في استطاعتنا، وما هو إلا أمر يتعلق بمشيئة الله.

{وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} أمر منهم للمؤمنين كافّة بالتوكل، وقصدوا به أنفسهم قصدًا أوليًّا وأمروها به، كأنهم قالوا: ومن حقنا أن نتوكل على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم، وما يجري علينا منكم، ألا ترى إلى قوله: {وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ} [إبراهيم: ١٢]؛ ومعناه: وأي عذرٍ لنا في ألا نتوكل عليه.

{وَقَدْ هَدَانَا} وقد فعل بنا ما يوجب توكُّلنا عليه، وهو التوفيق لهداية كل واحد منا سبيله الذي يجب عليه سلوكه في الدين، فإن قلت: كيف كُرر الأمر بالتوكل؟ قلت: الأول لاستحداث التوكل.

{فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ}؛ معناه: فليثبت المتوكلون على ما استحدثوا من توكلهم وقصدهم إلى أنفسهم على ما تقدم.

وقال - تعالى -: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا} [الفرقان: ٣٠ - ٣١].

ويقول العلامة السعدي - رحمه الله - في " تفسيره: "{وَقَالَ الرَّسُولُ} مناديًا لربه، وشاكيًا له إعراض قومه عمَّا جاء به، ومتأسفًا على ذلك منهم: {يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي} الذين أرسلتني لهدايتهم وتبليغهم.

{اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا}؛ أي: قد أعرضوا عنه، وهجروه، وتركوه، مع أن الواجب عليهم الانقياد لحكمه والإقبال على أحكامه، والمشي خلفه، قال الله مسليًا لرسوله - صلى الله عليه وسلم - ومخبرًا أن هؤلاء الخلق لهم سلف صنعوا كصنيعهم، فقال: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ} [الفرقان: ٣١]؛ أي: من الذين لا يصلحون للخير، ولا يزكون عليه، يعارضونهم، ويردون عليهم، ويجادلونهم بالباطل.

من بعض فوائد ذلك:

أن يعلو الحق على الباطل، وأن يتبين الحق ويتضح اتضاحًا عظيمًا؛ لأن معارضة الباطل للحق مما تزيده وضوحًا وبيانًا وكمال استدلال، وأن يتبين ما يفعل الله بأهل الحق من الكرامة، وبأهل الباطل من العقوبة، فلا تحزن عليهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات.

{وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا} يهديك، فيحصل لك المطلوب ومصالح دينك ودنياك.

{وَنَصِيرًا} ينصرك على أعدائك، ويدفع عنك كل مكروه في أمر الدين والدنيا، فاكتفِ به وتوكل عليه.

(١٨) أن يفعل العبد ما يوعظ به:

لقوله - تعالى -: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [النساء: ٦٦ - ٦٨].

يقول العلامة السعدي - رحمه الله -: "يُخبِر - تعالى - أنه لو كتب على عباده الأوامر الشاقَّة على النفوس؛ من قتل النفوس، والخروج من الديار، لم يفعلْه إلا القليل منهم والنادر، فليحمدوا ربهم، وليشكروه على تيسير ما أمرهم به من الأوامر التي تسهل على كل أحد، ولا يشق فعلها، وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي أن يلحظَ العبد ضدَّ ما هو فيه من المكروهات، لتخف عليه العبادات، ويزداد حمدًا وشكرًا لربه.

ثم أخبر أنهم لو فعلوا ما يُوعَظون به؛ أي: ما وظف عليهم في كل وقت بحسبه، فبذلوا هممَهم، ووفروا نفوسهم للقيام به وتكميله، ولم تطمحْ نفوسهم لما لم يصلوا إليه، ولم يكونوا بصدده، وهذا

هو الذي ينبغي للعبد، أن ينظر إلى الحالة التي يلزمه القيام بها فيكملها، ثم يتدرَّج شيئًا فشيئًا حتى يصلَ إلى ما قدر له من العلم والعمل في أمر الدين والدنيا، وهذا بخلاف من طمحتْ نفسه إلى أمر لم يصل إليه ولم يؤمر به بعد، فإنه لا يكاد يصل إلى ذلك بسبب تفريق الهمة، وحصول الكسل وعدم النشاط.

ثم رتَّب ما يحصل لهم على فعل ما يوعظون به؛ وهو أربعة أمور:

(أحدها) الخيرية في قوله: {لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ}؛ أي: لكانوا من الأخيار المتَّصِفين بأوصافهم من أفعال الخير التي أُمِروا بها؛ أي: وانتفى عنهم بذلك صفة الأشرار؛ لأن ثبوت الشيء يستلزم نفي ضده.

الثاني: حصول التثبيت والثبات وزيادته، فإن الله يثبِّت الذين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان، الذي هو القيام بما وعظوا به، فيثبتهم في الحياة الدنيا عند ورود الفتن في الأوامر والنواهي والمصائب، فيحصل لهم ثبات، يوفقون لفعل الأوامر وترك الزواجر التي تقتضي النفس فعلها، وعند حلول المصائب التي يكرهها العبد؛ فيوفق للتثبيت بالتوفيق للصبر، أو للرضا، أو للشكر، فينزل عليه معونة من الله للقيام بذلك، ويحصل له الثبات على الدين، عند الموت وفي القبر.

وأيضًا فإن العبد القائم بما أمر به، لا يزال يتمرَّن على الأوامر الشرعية حتى يألفها ويشتاق إليها وإلى أمثالها، فيكون ذلك معونةً له على الثبات على الطاعات.

الثالث: قوله: {وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا}؛ أي: في العاجل والآجل الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المُقِيم مما لا عينٌ رأتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر.

الرابع: الهداية إلى صراط مستقيم، وهذا عموم بعد خصوص، لشرف الهداية إلى الصراط المستقيم، من كونها متضمِّنة للعلم بالحق، ومحبته وإيثاره والعمل به، وتوقف السعادة والفلاح على ذلك، فمَن هُدِي إلى صراط مستقيم، فقد وفِّق لكل خير، واندفع عنه كل شر وضير.

ولقوله - تعالى -: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الزمر: ١٧- ١٨].

ويقول محمد علي الصابوني في "تفسيره":

{فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ}؛ أي: فبشِّر عبادي المتَّقِين، الذين يستمعون الحديث والكلام، فيتبعون أحسنَ ما فيه، قال ابن عباس: هو الرجل يسمع الحسن

والقبيح، فيتحدَّث بالحسن، وينكف عن القبيح فلا يتحدَّث به، وهذا ثناء من الله - تعالى - عليهم بنفوذ بصائرهم، وتمييزهم الأحسن من الكلام، فإذا سمعوا قولاً تبصروه، وعملوا بما فيه، وأحسن الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد، وإنما وضع الظاهر.

{أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ} [الزمر: ١٨]؛ أي: أولئك المتَّصِفون بتلك الصفات الجليلة، هم الذين هداهم الله لما يرضاه، ووفَّقهم لنيل رضاه.

{وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ}؛ أي: وأولئك هم أصحاب العقول السليمة والفطر المستقيمة.

وقوله - تعالى -: {إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [الأنعام: ٣٦].

(١٩) لزوم جماعة المسلمين:

قال - تعالى -: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: ١٥٣].

يقول الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية:

"قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: {وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ}، وفي قوله: {أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} [الشورى: ١٣]، ونحو هذا في القرآن، قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة، وأخبرهم أنه إنما أهلك مَن كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله، ونحو هذا قاله مجاهد، وغير واحد.

وقوله - تعالى -: {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} [النحل: ٩].

يعلق الشاطبي - رحمه الله تعالى - على هذه الآية، فيقول: "فالسبيلُ القصدُ هو طريق الحق، وما سواه جائر عن الحق؛ أي: عادل عنه، وهي طرق البدع والضلالات، أعاذنا الله من سلوكها بفضله، وكفى بالجائر أن يحذَّرَ منه؛ فالمساق يدل على التحذير والنهي.

عن التستري: (قصد السبيل): طريق السنة، "ومنها جائر"؛ يعني: إلى النار، وذلك الملل والبدع.

وعن مجاهد: "قصد السبيل"؛ أي: المقتصد منها بين الغلو والتقصير، وذلك يفيد أن الجائر هو الغالي أو المقصر، وكلاهما من أوصاف البدع"[٤٧]؛ اهـ.

٤٧- "الاعتصام" (١/ ٧٨، ٧٩) باختصار، ت/ سليم الهلالي.

وقوله - تعالى -: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ} [الشورى: ١٣].

هذه أكبر منَّة أنعم الله بها على عباده، أن شرع لهم من الدِّين خير الأديان وأفضلها، وأزكاها وأطهرها، دين الإسلام، الذي شرعه الله للمصطفين المختارين من عباده، بل شرعه الله لخيار الخيار، وصفوة الصفوة، وهم أولو العزم من المرسلين، المذكورون في هذه الآية، أعلى الخلق درجة، وأكملهم من كل وجه، فالدين الذي شَرَعه الله لهم لا بدَّ أن يكون مناسبًا لأحوالهم، موافقًا لكمالهم، بل إنما كمَّلهم الله واصطفاهم، بسبب قيامهم به، فلولا الدين الإسلامي، ما ارتفع أحد من الخلق؛ فهو روح السعادة، وقطب رحى الكمال، وهو ما تضمَّنه هذا الكتاب الكريم، ودعا إليه من التوحيد والأعمال والأخلاق والآداب.

ولهذا قال: {أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ}؛ أي: أمركم أن تُقيموا جميع شرائع الدين أصوله وفروعه، تُقيمونه بأنفسكم، وتجتهدون في إقامته على غيركم، وتعاونون على البر والتقوى، ولا تعاونون على الإثم والعدوان.

{وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ}؛ أي: ليحصل منكم الاتفاق على أصول الدين وفروعه، واحرِصُوا على ألاَّ تفرّقكم المسائل وتحزبكم أحزابًا، وتكونوا شيعًا، يعادي بعضكم بعضًا، مع اتفاقكم على أصل دينكم.

ومن أنواع الاجتماع على الدين وعدم التفرق فيه، ما أمر به الشارع من الاجتماعات العامة؛ كاجتماع الحج، والأعياد، والجُمَع، والصلوات الخمس، والجهاد، وغير ذلك من العبادات التي لا تتم ولا تكمل إلا بالاجتماع لها، وعدم التفرق.

وعن ابن عباس عن عمر - رضي الله عنه - أنه قال ذلك، قال الله: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} [الإسراء: ٣٦]، هدانا وإياكم الصراط المستقيم، وجنبنا الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات[٤٨].

٤٨- "خلق أفعال العباد"؛ للإمام البخاري (٢٣٠).

(٢٠) الدعاء بالهداية والثبات على الدين والتعوذ من الفتن:

عن أبي ذر - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - فيما روى عن الله - تبارك وتعالى - أنه قال: ((يا عبادي، إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرَّمًا، فلا تظالموا، يا عبادي، كلكم ضالٌّ إلا مَن هديتُه، فاستهدوني أهدِكم...))؛ الحديث[٤٩].

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه -: أن النبي - ﷺ - كان يقول: ((اللهم إني أسألك الهدى، والتقى، والعفاف، والغنى))[٥٠].

وعن علي قال: قال لي رسول الله - ﷺ -: ((قل: اللهم اهدني، وسدِّدني، واذكر بالهدى هدايتَك الطريقَ، والسَّدادِ سَدادَ السهم))[٥١].

وقال الإمام النووي في شرحه: "أما "السَّداد" هنا بفتح السين، وسداد السهم تقويمه، ومعنى: "سددني": وفقني، واجعلني منتصبًا في جميع أموري مستقيمًا، وأصل السداد: الاستقامة والقصد في الأمور.

وأما الهدى هنا، فهو الرشاد، ويذكَّر ويؤنَّث.

ومعنى: "واذكر بالهدى هدايتك الطريق والسداد سداد السهم"؛ أي: تذكَّر ذلك في حال دعائك بهذين اللفظين؛ لأن هادي الطريق لا يزيغ عنه، ومسدد السهم يحرص على تقويمه، ولا يستقيم رميه حتى يقوِّمه، وكذا الداعي ينبغي أن يحرص على تسديد علمه وتقويمه، ولزومه السنة.

وقيل: ليتذكر بهذا لفظ السداد والهدى، لئلاَّ ينساه"[٥٢].

وعن شهر بن حوشب قال: قلتُ لأم سلمة: يا أم المؤمنين، ما كان أكثر دعاء رسول الله - ﷺ - إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه: ((يا مقلب القلوب، ثبِّت قلبي على دينك))، قالت: فقلتُ: يا رسول الله، ما أكثر دعاءك: ((يا مقلب القلوب، ثبِّت قلبي على دينك))، قال: ((يا

---

٤٩ - مسلم (٢٥٧٧)، وأحمد (٢١٤٥٨)، والترمذي (٢٤٩٥)، وابن ماجه (٤٢٥٧).

٥٠ - مسلم (٢٧٢١)، وأحمد (٣٦٩٢، ٣٩٥٠،)، والترمذي (٣٤٨٩)، وابن ماجه (٣٨٣٢).

٥١ - مسلم (٢٧٢٥)، وأحمد (٦٦٤) الحديث رواه مسلم، وأبو داود (٤٢٢٥).

٥٢ - "شرح النووي على صحيح مسلم" (٤٤/١٧).



أم سلمة، إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله، فمَن شاء أقام، ومَن شاء أزاغ))، فتلا معاذ: {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا} [آل عمران: ٨][٥٣].

في هذا الحديث: خضوع منه - ﷺ - لربه، وتضرع إليه، وإرشاد الأمة إلى سؤال ذلك، وإيماء إلى أن العبرة بالخاتمة.

وعن أنس بن مالك، قال: كان رسول الله - ﷺ - يكثرُ أن يقول: ((اللهم ثبِّت قلبي على دينك))، فقال رجل: يا رسول الله، تخاف علينا، وقد آمنَّا بك، وصدقناك بما جئتَ به؟ فقال: ((إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن - عز وجل - يقلبها))، وأشار الأعمش بإصبعيه[٥٤].

وعن النوَّاس بن سمعان قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: ((ما من قلبٍ إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه))، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: ((يا مثبِّت القلوب، ثبِّت قلوبنا على دينك))، قال: ((والميزان بيد الرحمن، يرفع أقوامًا، ويخفض آخرين إلى يوم القيامة))[٥٥].

وعن عبدالله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: سمعتُ رسول الله - ﷺ - يقول: ((إن قلوب بني آدم كلَّها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء))، ثم قال رسول الله - ﷺ -: ((اللهم مصرِّف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك))[٥٦].

ولما كان قلب رسول الله - ﷺ - خيرَ قلوب العباد؛ جعله الله إمام الأنبياء، وسيِّد ولد آدم أجمعين، وأرسله - سبحانه - رحمة للعالمين؛ فعن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: "إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد - ﷺ - خير قلوب العباد؛ فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد - ﷺ - فوجد قلوب أصحابه خير

---

٥٣ - صحيح: رواه الترمذي (٣٥٢٢)، وصحَّحه الألباني في "صحيح الجامع" (٤٨٠١)، وانظر: "الصحيحة" (٢٠٩١).

٥٤ - صحيح: رواه أحمد (١٢١٢٨)، تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده قوي على شرط مسلم، والترمذي (٢١٤٠)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٣٨٣٤)، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٧٩٨٧).

٥٥ - صحيح: رواه أحمد (١٧٦٦٧)، تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وابن ماجه (١٩٩)، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٧٩٨٨).

٥٦ - مسلم (٢٦٥٤)، وأحمد (٦٥٦٩).

قلوب العباد، فجعلهم وزراءَ نبيه، يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئًا فهو عند الله سيئ"[٥٧].

وعن أسماء بنت أبي بكر، قالت: قال النبي - ﷺ -: ((إني على الحوض حتى أنظر مَن يَرِدُ عليَّ منكم، وسيؤخذ ناسٌ دوني، فأقول: يا رب، مني ومن أمتي، فيقال: هل شعرتَ ما عملوا بعدك، والله ما برحوا يرجعون على أعقابهم"، فكان ابن أبي مليكة يقول: اللهم إنا نعوذ بك أن نرجعَ على أعقابنا، أو نفتن عن ديننا[٥٨].

مواضع الدعاء بالهداية:

عند إسلام المرء:

عن أبي مالك الأشجعي، عن أبيه - رضي الله عنهما - قال: كان الرجل إذا أسلم علَّمه النبي - ﷺ - الصلاة، ثم أمره أن يدعو بهؤلاء الكلمات: ((اللهم، اغفر لي، وارحمني، واهدني، وعافني، وارزقني))[٥٩].

دعاؤه - ﷺ - لربه في تهجده بالليل أن يهديه للحق وأحسن الأخلاق:

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالتْ: كان نبي الله - ﷺ - إذا قام من الليل افتتح صلاته: ((اللهم ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطرَ السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلِف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي مَن تشاء إلى صراط مستقيم))[٦٠].

وعن عاصم بن حميد قال: سألتُ عائشة - رضي الله عنها -: بِمَ كان رسول الله - ﷺ - يستفتح قيام الليل؟ قالتْ: لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحدٌ قبلك، كان رسول الله -

---

٥٧- حسن: رواه أحمد في "المسند" (٣٦٠٠)، تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.

٥٨ -البخاري (٦٥٩٣)، ومسلم (٢٢٩٣).

٥٩ -مسلم (٢٦٩٧)، وأحمد (١٥٩١٨)، تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

٦٠ - مسلم (٧٧٠)، وأبو داود (٧٦٧) والترمذي (٣٤٢٠)، وابن ماجه (١٣٥٧)، والنسائي (١٦٢٥).



ﷺ - يكبِّر عشرًا، ويحمَد عشرًا، ويسبح عشرًا، ويهلل عشرًا، ويستغفر عشرًا، ويقول: ((اللهم اغفر لي، واهدني، وارزقني، وعافني، أعوذ بالله من ضيقِ المقام يوم القيامة))[٦١].

وكان النبي - ﷺ - يدعو في الاستفتاح للصلاة، ومنه قوله: ((واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيِّئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت...)) الحديثَ[٦٢].

ولقوله - ﷺ -: ((اللهم اغفر لي ذنوبي وخطاياي كلها، اللهم أنعشني واجبرني، واهدِني لصالح الأعمال والأخلاق؛ فإنه لا يهدي لصالحها، ولا يصرف سيِّئها إلا أنت))[٦٣].

استجابة الله - تعالى - لعبده لما سأله الهداية في فاتحة الكتاب في الصلاة:

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: ((مَن صلى صلاةً لم يقرأْ فيها بأم القرآن، فهي خِداج - ثلاثًا - غيرُ تمام))، فقيل لأبي هريرة: إنا نكونُ وراء الإمام، فقال: اقرأ بها في نفسك؛ فإني سمعتُ رسول الله - ﷺ - يقول: ((قال الله - تعالى -: قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفينِ، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، قال الله - تعالى -: حمدني عبدي، وإذا قال: {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}، قال الله - تعالى -: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}، قال: مجَّدني عبدي، وقال مرةً: فوَّض إليَّ عبدي، فإذا قال: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}، قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل))[٦٤].

وعن عبدالله بن أبي أَوْفَى قال: جاء رجل إلى النبي - ﷺ - فقال: إني لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئًا، فعلِّمني ما يجزئني منه، قال: ((قل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم))، قال: يا رسول الله، هذا لله - عز وجل

---

٦١ – حسن صحيح: رواه أحمد في "المسند" (٢٥١٤٥) قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: حديث حسن، وأبو داود (٧٦٦، ٥٠٨٥)، والنسائي (١٦١٧، ٥٥٣٥)، وابن ماجه (١٣٥٦) وصحَّحه الألباني.

٦٢ – مسلم (٧٧١)، وأحمد (٨٠٣)، وأبو داود (٧٦٠)، والترمذي (٣٤٢١، ٣٤٢٢)، والنسائي (٨٩٧) عن علي بن أبي طالب.

٦٣ – حسن: رواه الطبراني في "الكبير"، وحسنه الألباني في "صحيح الجامع" (١٢٦٦).

٦٤ – مسلم (٣٩٥)، وأحمد (٧٢٨٩)، وأبو داود (٨٢١)، وابن ماجه (٣٧٨٤).



- فما لي؟ قال: ((قل اللهم ارحمني، وارزقني، وعافني، واهدني))، فلما قام، قال هكذا بيده، فقال رسول الله - ﷺ -: ((أما هذا، فقد ملأ يده من الخير))[٦٥].

ويقول الإمام ابن القيم - رحمه الله -: "ولما كان سؤالُ الله الهدايةَ إلى الصراط المستقيم أجلَّ المطالب، ونَيْله أشرف المواهب، علَّم الله عباده كيفية سؤاله، وأمرهم أن يقدِّموا بين يديه حمدَه والثناءَ عليه وتمجيدَه، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم؛ فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم، توسُّل إليه بأسمائه وصفاته، وتوسُّل إليه بعبوديته، وهاتان الوسيلتان لا يكاد يُرَدُّ معهما الدعاء، ويؤيِّدهما الوسيلتان المذكورتان في حديثي الاسم الأعظم، اللذين رواهما ابن حبان في "صحيحه"، والإمام أحمد، والترمذي.

أحدهما: حديث عبدالله بن بُرَيدة الأَسْلَمي عن أبيه قال: سمع النبي - ﷺ - رجلاً يدعو وهو يقول: "اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنتَ الله لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد"، فقال - ﷺ -: ((والذي نفسي بيده، لقد سأل اللهَ باسمه الأعظم، الذي إذا دُعِي به أجاب، وإذا سُئِل به أعطى))[٦٦]؛ فهذا توسُّل إلى الله بتوحيده، وشهادة الداعي له بالوحدانية، وثبوت صفاته المدلول عليها باسم الصمد، وهو كما قال ابن عباس: العالم الذي كمل علمه، القادر الذي كملت قدرته، وفي رواية عنه: هو السيد الذي قد كمل فيه جميع أنواع السؤدد، وقال أبو وائل: هو السيد الذي انتهى سؤدده.

وقال سعيد بن جبير: هو الكامل في جميع صفاته، وأفعاله، وأقواله، وبنفي التشبيه والتمثيل عنه بقوله: "ولم يكن له كفوًا أحد".

وهذه ترجمة عقيدة أهل السنة، والتوسل بالإيمان بذلك، والشهادة به هو الاسم الأعظم.

والثاني: حديث أنس بن مالك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - سمع رجلاً يقول: "اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، المنان، بديع السموات والأرض،

---

٦٥ - حسن: رواه أحمد في "المسند" (١٩١٦١)، تعليق شعيب الأرناؤوط: حديث حسن بطرقه، وأبو داود (٨٣٢)، والنسائي (٩٢٤)، وحسنه الألباني، وابن حبان (١٨١٠)، قال شعيب الأرناؤوط: حديث حسن.

٦٦ - صحيح: رواه أحمد (٢٣٠٠٢)، تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، والترمذي (٣٤٧٥)، وصححه الألباني.

ذا الجلال والإكرام ، يا حي يا قيوم"، فقال النبي - ﷺ -: ((لقد سأل الله باسم الله الأعظم، الذي إذا دُعِي به أجاب، وإذا سُئِل به أعطى))[٦٧]؛ فهذا توسُّل إليه بأسمائه وصفاته.

وقد جمعتِ الفاتحة الوسيلتين، وهما التوسل بالحمد والثناء عليه وتمجيده، والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده، ثم جاء سؤال أهم المطالب وأنجح الرغائب - وهو الهداية - بعد الوسيلتين، فالداعي به حقيق بالإجابة، ونظير هذا دعاء النبي - ﷺ - الذي كان يدعو به إذا قام يصلي من الليل، رواه البخاري في "صحيحه" من حديث ابن عباس: ((اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض، ولك الحمد، أنت قيِّم السموات والأرض، ولك الحمد، أنت رب السموات والأرض ومَن فيهن، أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك الحق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكلتُ، وإليك أنبتُ، وبك خاصمتُ، وإليك حاكمتُ، فاغفر لي ما قدمتُ وما أخرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ، أنت إلهي لا إله إلا أنت))[٦٨]؛ فذكر التوسل إليه بحمده، والثناء عليه، وبعبوديته له، ثم سأله المغفرة[٦٩].

الدعاء بالهداية ما بين السجدتين:

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي - ﷺ - كان يقول بين السجدتين: ((اللهم اغفر لي، وارحمني، واجبرني، واهدِني، وارزقني))[٧٠].

وفي رواية أبي داود أنه كان - ﷺ - يقول بين السجدتين: ((اللهم اغفر لي، وارحمني، وعافني، واهدني، وارزقني)).

---

٦٧ - صحيح: رواه أحمد في "المسند" (١٢٢٢٦)، تعليق شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح، والترمذي (٣٥٤٤)، والنسائي (١٣٠٠)، وصححه الألباني.

٦٨ - البخاري (١١٢٠، ٧٤٩٩)، ومسلم (٧٦٩).

٦٩ - "مدارج السالكين" للإمام ابن القيم - رحمه الله - ط/ دار التقوى - مصر (ص: ٢٠ - ٢١).

٧٠ - حسن: رواه أحمد في "المسند" (٣٥١٤)، تعليق شعيب الأرناؤوط: حسن، وهذا سند رجاله ثقات رجال الشيخين غير كامل، وأبو داود (٨٥٠)، والترمذي (٢٨٤)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، و"مشكاة المصابيح" (٩٠٠)، وحسَّنه الألباني.

الدعاء بالهداية في قنوت الوتر:

عن أبي الحوراء قال: قال الحسن بن علي - رضي الله عنهما -: علمني رسول الله - ﷺ - كلماتٍ أقولهن في الوتر، قال ابن جَوَّاس في قنوت الوتر: ((اللهم اهدني فيمَن هديت، وعافني فيمَن عافيت، وتولَّني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيتَ، وقِني شرَّ ما قضيتَ، إنك تقضي ولا يُقضَى عليك، وإنه لا يَذِل مَن واليت، ولا يَعِز مَن عاديت، تباركتَ ربنا وتعاليتَ))[٧١].

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كان النبي - ﷺ - يدعو: ((ربِّ، أعني ولا تُعِنْ عليَّ، وانصرني ولا تنصر عليَّ، وامكر لي ولا تمكر عليَّ، واهدني ويسّر هداي إليَّ، وانصرني على مَن بغى عليَّ، اللهم اجعلني لك شاكرًا، لك ذاكرًا، لك راهبًا، لك مطواعًا، إليك مخبتًا، أو منيبًا، ربِّ، تقبَّل توبتي، واغسل حَوْبتي، وأَجِبْ دعوتي، وثبت حجتي، واهدِ قلبي، وسدِّد لساني، واسلل سخيمة قلبي))[٧٢].

وفي رواية ابن ماجه: قال أبو الحسن الطنافسي: قلت لوكيع: أقوله في قنوت الوتر؟ قال: نعم.

التعوذ بالله - تعالى - من الفتن ما ظهر منها وما بطن:

لقوله - ﷺ -: ((تعوَّذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن))، قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن"[٧٣].

الشرح:

(ربِّ أعني)؛ أي: على الأعداء.

(ولا تُعِن عليَّ)؛ أي: لا تُعِنِ الأعداء عليَّ.

(وامكُر لي): مكر الله إيقاع بلائه بأعدائه دون أوليائه، وقيل: هو استدراج العبد بالطاعات، فيتوهم أنها مقبولة، وهي مردودة.

(راهبًا "في الرواية التي استشهد بها" لك)؛ أي: خوافًا خاشعًا.

---

٧١ - صحيح: رواه أحمد في المسند (١٧١٨)، تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات، وأبو داود (١٤٢٥)، وابن ماجه (١١٧٨)، وابن حبان في "صحيحه" (٧٢٢، ٩٤٥).

٧٢ - صحيح: رواه أحمد في "المسند" (١٩٩٧)، تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات رجال الصحيح، غير طليق بن قيس، وأبو داود (١٥١٠)، والترمذي (٣٥٥١)، وابن ماجه (٣٨٣٠)، وابن حبان (٩٤٨)، وصححه الألباني.

٧٣ - مسلم (٢٨٦٧)، وأحمد (٢١٧٠١) عن زيد بن ثابت - رضي الله عنه.

(مخبِتا) من الإخبات، وهو الخشوع والتواضع.
(أواهًا)؛ أي: متضرعًا، وقيل: بكَّاءً.
(منيبًا) من الإنابة، وهو الرجوعُ إلى اللهِ بالتوبةِ.
(حَوْبَتي)؛ أي: إثمي.
(واسلل)؛ أي: انزع.
(السخيمة): الحقد.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أن رسول الله - ﷺ - كان يقول: ((اللهم، لك أسلمتُ، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، اللهم إني أعوذ بعزَّتك، لا إله إلا أنتَ أن تضلَّني، أنت الحيُّ الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون))[٧٤].

وعن أم سلمة - رضي الله عنها - قالت: ما خرج النبي - ﷺ - من بيتي قط إلا رفع طرَفَه إلى السماء، فقال: ((اللهم إني أعوذ بك أن أَضِل أو أُضَل، أو أَزِل أو أُزَل، أو أَظلِم أو أُظلَم، أو أَجهَل أو يُجهَل عليَّ))[٧٥].

ومن دعائه - ﷺ - إذا صلى على جنازة أن يقول: ((... اللهم لا تحرمْنا أجره، ولا تضلنا بعده))[٧٦]، وفي رواية: ((اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده))[٧٧].

(٢١) الصحبة الصالحة:

عن أبي موسى - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: ((مَثَل الجليس الصالح والسوء، كحامل المسك ونافخ الكير؛ فحامل المسك إما أن يُحْذِيَك، وإما أن تبتاع منه،

---

٧٤ – البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٢٧١٧)، واللفظ له، عن ابن عباس– رضي الله عنه.

٧٥ – صحيح: رواه أبو داود (٥٠٩٤)، والترمذي (٣٤٢٧)، وابن ماجه (٣٨٨٤)، والنسائي (٥٤٨٦)، وصححه الألباني في "المشكاة " (٢٤٤٢).

٧٦ – صحيح: رواه أبو داود (٣٢٠١)، ابن ماجه (١٤٩٨)، وصححه الألباني – رحمه الله – في "صحيح ابن ماجه (١٢١٧)، والمشكاة (١٦٧٥) عن أبي هريرة.

٧٧ – صحيح: رواه أحمد (٨٧٩٥)، تعليق شعيب الأرناؤوط: صحيح بطرقه وشواهده، وهذا إسناد ضعيف لضعف أيوب بن عتبة، لكنه قد توبع، وباقي رجاله ثقات، والترمذي (١٠٢٤)، وأبو يعلى في "مسنده" (٦٥٩٨)، قال حسين سليم أسد: إسنادُه صحيح، وابن حبان (٣٠٧٣)، قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحًا خبيثة))[٧٨].

يقول الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم:

"فيه تمثيله - ﷺ - الجليسَ الصالح بحامل المسك، والجليسَ السوء بنافخ الكير، وفيه فضيلة مجالسة الصالحين، وأهل الخير والمروءة، ومكارم الأخلاق والورع، والعلم والأدب، والنهي عن مجالسة أهل الشر وأهل البدع، ومَن يغتاب الناس، أو يكثر فجره وبطالته، ونحو ذلك من الأنواع المذمومة، ومعنى: ((يُحْذِيك)): يُعْطِيك، وهو بالحاء المهملة والذال، وفيه طهارة المسك واستحبابه، وجواز بَيْعه، وقد أجمع العلماء على جميع هذا، ولم يخالف فيه مَن يعتدُّ به، ونقل عن الشيعة نجاسته، والشيعة لا يعتدُّ بهم في الإجماع، ومن الدلائل على طهارته الإجماع، وهذا الحديث، وهو قوله - ﷺ -: ((وإما أن تبتاع منه))، والنجس لا يصح بيعه؛ ولأنه - ﷺ - كان يستعمله في بدنه ورأسه، ويصلي به، ويخبر أنه أطيب الطِّيب، لم يزل المسلمون على استعماله وجواز بيعه.

قال القاضي: وما روي من كراهة العُمَرين له فليس فيه نصٌّ منهما على نجاسته، ولا صحَّت الرواية عنهما بالكراهة، بل صحت قسمة عمر بن الخطاب المسك على نساء المسلمين، والمعروف عن ابن عمر استعماله، والله أعلم".

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال: ((الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم مَن يخالل))[٧٩].

((الرجل))؛ يعني: الإنسان.

((على دين خليله))؛ أي: على عادة صاحبه، وطريقته، وسيرته.

((فلينظر))؛ أي: يتأمَّل ويتدبر ((مَن يخالل))؛ فمَن رَضِي دينه وخلقه خالله، ومَن لا، تجنَّبه؛ فإن الطباع سراقة[٨٠].

---

٧٨ - البخاري (٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨)، وأحمد (١٩٠٦٤٠).

٧٩ - حسن: رواه أحمد في "المسند" (٨٠١٥، ٨٣٩٨)، تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده جيد، وأبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وحسنه الألباني.

٨٠ - "عون المعبود شرح سنن أبي داود؛ للمؤلف: "محمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب"، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.



وعنه - رضي الله عنه - في حديث يرفعه، قال: ((الناسُ معادن كمعادن الفِضَّة والذهب، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، والأرواح جنود مجنَّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف))[٨١].

((الأرواح))؛ أي: أرواح الإنسان.

((جنود)): جمع جند؛ أي: جموع.

((مجنَّدة)) - بفتح النون المشددة - أي: مجتمعة، متقابلة، أو مختلطة؛ منها حزب الله، ومنها حزب الشيطان.

((فما تعارف منها)): التعارف: جريان المعرفة بين اثنين، والتناكر ضده؛ أي: فما تعرف بعضها من بعض قبل حلولها في الأبدان.

((ائتلف))؛ أي: حصل بينهما الألفة والرأفة حال اجتماعِهما بالأجساد في الدنيا.

((وما تناكر منها))؛ أي: في عالم الأرواح.

((اختلف))؛ أي: في عالم الأشباح.

قال النووي معنى قوله: ((والأرواح جنود مجندة)): جموع مجتمعة أو أنواع مختلفة.

وأما تعارفها، فهو لأمر جعلها الله عليه، وقيل: إنها موافقة صفاتها التي جعلها الله عليها، وتناسبها في شيمها.

وقيل: لأنها خلقت مجتمعة، ثم فرقت في أجسادها، فمَن وافق بشيمه ألفه، ومَن باعده نافره وخالفه.

وقال الخطابي وغيره: تآلفُها هو ما خلقها الله عليه من السعادة أو الشقاوة في المبتدأ، وكانت الأرواح قسمين متقابلين، فإذا تلاقتِ الأجساد في الدنيا ائتلفتْ واختلفت بحسب ما خلقت عليه، فيميل الأخيار إلى الأخيار، والأشرار إلى الأشرار"؛ انتهى.

وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول: ((لا تصحبْ إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامَك إلا تقي))[٨٢].

---

٨١ – رواه مسلم (٢٦٣٨)، وأحمد (١٠٩٦٩)، وأبو داود (٤٨٣٤)، وابن حبان في صحيحه (٦١٦٨).

٨٢ –حسن: رواه أحمد في المسند (١١٣٥٥)، قال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن، وأبو داود في "سننه" (٤٨٣٢)، والترمذي في "سننه" (٢٣٩٥)، وحسنه الألباني.

((لا تصحب إلا مؤمنًا))؛ أي: كاملاً، أو المراد: النهي عن مصاحبة الكفار والمنافقين؛ لأن مصاحبتَهم مضرَّة في الدين، فالمراد بالمؤمن جنس المؤمنين.

((ولا يأكل طعامَك إلا تقي))؛ أي: متورع، والأكل وإن نسب إلى التقى، ففي الحقيقة مسند إلى صاحب الطعام؛ فالمعنى: لا تطعم طعامك إلا تقيًّا.

قال الخطابي: إنما جاء هذا في طعام الدعوة دون طعام الحاجة؛ وذلك أن الله - سبحانه - قال: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} [الإنسان: ٨]، ومعلوم أن أسراهم كانوا كفارًا غير مؤمنين ولا أتقياء، وإنما حذَّر - عليه السلام - مِن صحبة مَن ليس بتقي، وزجر عن مخالطته ومؤاكلته؛ فإن المطاعمة تُوقِع الألفة والمودة في القلوب.

قال - تعالى -: {فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ} [الصافات: ٥١ - ٦١].

شرح الكلمات:

فأقبل بعضهم على بعض؛ أي: أقبل أهل الجنة.

يتساءلون: عمَّا مر بهم في الدنيا وما جرى لهم فيها.

إني كان لي قرين: أي كان لي صاحب ينكر البعث الآخر.

يقول أئنَّك لمن المصدِّقين؛ أي: يقول تبكيتًا لي وتوبيخًا؛ أي: بالبعث والجزاء.

أئنَّا لَمدِينُون؛ أي: محاسبون ومجزيون بأعمالنا في الدنيا؛ إنكارًا وتكذيبًا.

هل أنتم مطَّلعون؛ أي: معي إلى النار؛ لننظر حاله، وما هو فيه من العذاب.

فاطَّلع فرآه في سواءِ الجحيم؛ أي: في وسط النار.

تالله إن كدتَ لتُردِين؛ أي قال هذا تشميتًا به، ومعنى تُردِين: تهلكني.

لكنت من المُحضَرين؛ أي: المسوقين إلى جهنم، المحضرين فيها.

أفما نحن بميتين: أمخلدون فما نحن بميتين؟ والاستفهام للتقرير؛ أي: نعم.

إلا موتتنا الأولى: التي ماتوها في الدنيا.

لمثل هذا فليعمل العاملون؛ أي: لمثل هذا النَّعِيم من الخلود في الجنة، والنعم فيها.

فليعمل العاملون: وذلك بكثرة الصالحات، واجتناب السيئات.

معنى الآيات:

ما زال السياق في بيان نعيم أهل الجنة؛ فقد قال بعضهم لبعض بعد أن جلسوا على السرر متقابلين، يتجاذبون أطراف الحديث، متذكرين ما مر بهم من أحداث في الحياة الدنيا، فقال أحدهم: إني كان لي في الدنيا قرين؛ أي: صاحب يقول لي استهزاءً وإنكارًا للبعث الآخر: {أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ}؛ أي: بالبعث والجزاء على الأعمال في الدنيا، ويقول أيضًا مستبعدًا منكرًا: {أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ}؛ أي: محاسبون ومجزيون.

ثم قال ذلك القائل لبعض أهل مجلسه: {هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ}؛ أي: معي على أهل النار؛ لنرى صاحبي فيها، ونسأله عن حاله، فكأنهم أَبَوا عليه ذلك، وأَبَوا أن يطَّلعوا، أما هو فقد اطَّلع، فرآه في سواء الجحيم؛ أي: في وسطها، وقال له ما أخبر به - تعالى عنه - في قوله: {قَالَ تَاللَّهِ}؛ أي: والله {إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ}؛ أي: تُهلِكني، لما كنتَ تنكر عليَّ الإيمان بالبعث، وتسخر مني، وتشمت بي لإيماني وعملي الصالح، الذي كنت أرجو ثوابه، وهو حاصل الآن، وقال أيضًا: {وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي} عليَّ بالعصمة والحفظ؛ {لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ} الآن في جهنم معك.

ثم قال له: {أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى}، والاستفهام تقريري؛ فهو يقرِّره ليقول: نعم مخلَّدون، نحن في الجنة، وأنتم في النار.

ثم قال: {إِنَّ هَذَا}؛ أي: الخلود في دار النعيم {لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}؛ إذ كان نجاة من النار، وهي أعظم مرهوب مَخُوف، ودخولاً للجنة دار السلام والنعيم المقيم.

قال - تعالى -: {لِمِثْلِ هَذَا}؛ أي: هذا الفوز العظيم بالنجاة من النار والخلود في دار الأبرار، {فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ}؛ أي: فليواصلوا عملهم، وليخلِصوا فيه لله رب العالمين.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١ - بيان عظمة الله - تعالى - في إقدار المؤمن على أن يتكلَّم مع مَن هو في وسط الجحيم، ويرى صورته، ويتخاطب معه، ويفهم بعضهم بعضًا، والعرض التلفازي اليوم قد سهَّل إدراك هذه الحقيقة.

٢ - التحذير من قرناء السوء؛ كالشباب الملحد، وغيره.

٣ - بيان كيف كان المكذِّبون يَسْخَرون من المؤمنين، ويعدُّونهم متخلِّفين عقليًّا.

٤ - لا موت في الآخرة، وإنما حياة أبدية في النعيم، أو في الجحيم.

٥ - الحث على كثرة الأعمال الصالحة، والبعد عن الأعمال الفاسدة.

(٢٢) الكعبة المشرفة:

لقوله - تعالى -: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ} [آل عمران: ٩٦].

قال الإمام القاسمي - رحمه الله - في "محاسن التأويل":

{إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ}؛ أي: لنُسُكِهم وعباداتهم.

{لَلَّذِي بِبَكَّةَ}؛ أي: للبيت الذي ببكة؛ أي: فيها، وفي ترك الموصوف من التفخيم ما لا يخفى، وبكة لغة في مكة؛ فإن العرب تعاقب بين الباء والميم كما في قولهم: ضربة لازب ولازم، والنميط والنبيط في اسم موضع بالدهناء، وقولهم: أمر راتب وراتم، وأغبطت الحمى وأغمطت.

وقيل: مكة البلد، وبكة موضع المسجد، سمِّيت بذلك: لدقها أعناق الجبابرة، فلم يقصدْها جبَّار إلا قصمه الله - تعالى - أو لازدحام الناس بها مِن (بكه): إذا فرقه ووضعه، وإذا زاحمه، كما أن مكة من مكه: أهلكه ونقصه؛ لأنها تهلك من ظلم فيها وألحد، وتنقص الذنوب أو تنفيها كما في القاموس، وقد ذهب بعضهم إلى أن مكة هي (ميشا) أو (ماسا) المذكورة في التوراة، وآخَرُ إلى أنه مأخوذ من اسم واحد من أولاد إسماعيل وهو (مسا).

{مُبَارَكًا}؛ أي: كثير الخير، لما يحصل لمن حجَّه واعتمره، واعتكف عنده، وطاف حوله، من الثواب وتكفير الذنوب.

{وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ}؛ لأنه قِبْلَتهم ومتعبَّدهم.

تنبيه:

ذكر بعض المفسرين أن المراد بالأولية كونه أولاً في الوضع والبناء، ورَوَوا في ذلك آثارًا؛ منها: أنه - تعالى - خلق هذا البيت قبل أن يخلق شيئًا من الأرضين.

ومنها: أنه - تعالى - بعث ملائكة لبناء بيتٍ في الأرض على مثالِ البيت المعمور، وذلك قبل خلق آدم.

ومنها: أنه أول بيت وُضِع على وجه الماء عند خلق السماء والأرض، وأنه خُلِق قبل الأرض بألفي عام، وليس في هذه الآثار خبر صحيح يعول عليه.

والمتعين أن المراد: أول بيت وُضِع مسجدًا، كما بيَّنتْه رواية ابن أبي حاتم عن علي - رضي الله عنه - في هذه الآية قال: كانتِ البيوت قبله، ولكنه أوَّل بيت وضع لعبادة الله - تعالى.

وفي الصحيحين عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قلتُ: يا رسول الله ﷺ، أيُّ مسجد وضع في الأرض أولُ؟ قال: ((المسجد الحرام))، قال: قلت: ثم أي؟ قال: ((المسجد

الأقصى))، قلتُ: كم كان بينهما؟ قال: ((أربعون سنةً، ثم أينما أدركتْك الصلاة بعدُ فصلِّه؛ فإن الفضل فيه))[٨٣].

قال ابن القيم في "زاد المعاد":

"وقد أشكل هذا الحديث على مَن لم يعرف المراد به، فقال: معلوم أن سليمان بن داود الذي بنى المسجد الأقصى، وبينه وبين إبراهيم أكثر من ألف عام، وهذا من جهل القائل؛ فإن سليمان إنما كان له من المسجد الأقصى تجديدُه لا تأسيسُه، والذي أسَّسه هو يعقوب بن إسحاق - صلى الله عليهما وسلم - بعد بناء إبراهيم - عليه السلام - بهذا المقدار"؛ انتهى[٨٤].

(٢٣) مخالفة أصحاب الجحيم من اليهود والنصارى وغيرهما:

وذلك لما أمرنا الله - سبحانه وتعالى - أن نقول في صلاتنا وخارجها: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة: ٦ - ٧].

وقد روى الترمذي وغيره عن عَدِي بن حاتم عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ((اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون))[٨٥].

وقال سفيان بن عيينة: "كانوا يقولون: مَن فسد من علمائنا ففيه شَبَه من اليهود، ومَن فسد من عبَّادنا ففيه شبه من النصارى".

(٢٤) استقامة اللسان:

عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - رفعه قال: ((إذا أصبح ابن آدم، فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، فتقول: اتقِ الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمتَ استقمنا، وإن اعوججتَ اعوججنا))[٨٦].

---

٨٣ البخاري (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠).

٨٤ "محاسن التأويل"؛ للإمام محمد جمال الدين القاسمي.

٨٥ حسن: رواه الترمذي (٢٩٥٣، ٢٩٥٤)، وحسنه الألباني، وذكره ابن حجر في (٨/٩ الفتح)، ط. الريان.

٨٦ حسن: رواه أحمد في "المسند" (١١٩٢٧)، تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن، والترمذي (٢٤٠٧)، وأبو نعيم في "الحلية"، والبيهقي في "شعب الإيمان"، وأبو يعلى في "مسنده" (١١٨٥)، وعبد بن حميد في "مسنده" (٩٧٩).



وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: ((لا يستقيم إيمانُ عبدٍ حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يدخل رجل الجنة لا يأمن جارُه بوائقَه))[٨٧].

٨٧ رواه أحمد في "المسند" (١٣٠٧١)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٨)، عن الحسن، عن بعض أصحابه، وابن أبي الدنيا في "الصمت"، وحسنه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٢٨٤١)، و"صحيح الترغيب والترهيب" (٢٥٥٤، ٢٨٦٥).



الفصل الثالث: ثمرات اتباع هدى الله

(١) تحقيق التقوى ووحدة الصف:

لقوله - تعالى -: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: ١٥٣].

ويقول العلامة السعدي - رحمه الله في "تفسيره":

{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا}؛ أي: هذه الأحكام وما أشبهها، مما بيَّنه الله في كتابه، ووضَّحه لعباده، صراط الله الموصل إليه، وإلى دار كرامته، المعتدل السهل المختصر.

{فَاتَّبِعُوهُ}؛ لتنالوا الفوز والفلاح، وتدركوا الآمال والأفراح.

{وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ}؛ أي: الطرق المخالفة لهذا الطريق؛ { فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ}؛ أي: تضلكم عنه، وتفرقكم يمينًا وشمالاً، فإذا ضللتم عن الصراط المستقيم، فليس ثَمَّ إلا طرق توصل إلى الجحيم.

{ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}؛ فإنكم إذا قمتم بما بيَّنه الله لكم علمًا وعملاً صرتم من المتَّقين، وعباد الله المفلحين، ووحَّد الصراط، وأضافه إليه؛ لأنه سبيل واحد موصل إليه، والله هو المُعِين للسالكين على سلوكه.

(٢) حصول الأمن التام ومجانبة الضلال والشقاء:

لقوله - تعالى -: {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: ٣٨، ٣٩].

كرر الإهباط، ليرتِّب عليه ما ذكر، وهو قوله: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى}؛ أي: أي وقت وزمان جاءكم منِّي - يا معشر الثَّقَلين - هدى؛ أي: رسول وكتاب يَهْدِيكم لما يقرِّبكم مني، ويُدْنِيكم مني؛ ويُدْنِيكم من رضائي؛ {فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ} بأنْ آمن برسلي وكتبي، واهتدى بهم، وذلك بتصديقِ جميع أخبار الرسل والكتب، والامتثال للأمر والاجتناب للنهي، {فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}، وفي الآية الأخرى: {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} [طه: ١٢٣].

فرتب على اتباع هُدَاه أربعة أشياء:

نفي الخوف والحزن، والفرق بينهما: أن المكروه إن كان قد مضى، أحدث الحزن، وإن كان منتظرًا، أحدث الخوف، فنفاهما عمَّن اتبع هداه، وإذا انتفيا حصل ضدهما، وهو الأمن التام.



وكذلك نفي الضلال والشقاء عمَّن اتبع هداه، وإذا انتفيا ثبت ضدهما، وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداه، حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى، وانتفى عنه كل مكروه، من الخوف، والحزن، والضلال، والشقاء، فحصل له المرغوب، واندفع عنه المرهوب، وهذا عكس من لم يتبع هداه، فكفر به، وكذَّب بآياته.

(٣) هدى الله هو فضل الله ورحمته:

لقوله - تعالى -: {وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [آل عمران: ٧٢ - ٧٤].

(٤) الإيمان بالهدى أمنة من عذاب الدنيا والآخرة:

لقوله - تعالى -: {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً} [الكهف: ٥٥]؛ أي: ما منع الناس من الإيمان، والحال أن الهدى الذي يحصل به الفرق بين الهدى والضلال، والحق والباطل - قد وصل إليهم، وقامت عليهم حجة الله، فلم يمنعهم عدم البيان، بل منعهم الظلم والعدوان عن الإيمان، فلم يبقَ إلا أن تأتيَهم سنة الله، وعادته في الأولين من أنهم إذا لم يؤمنوا، عُوجِلوا بالعذاب، أو يَرَون العذاب قد أقبل عليهم، ورأوه مقابلة ومعاينة؛ أي: فليخافوا من ذلك، وليتوبوا من كفرهم، قبل أن يكون العذاب الذي لا مَرَدَّ له.

(٥) المغفرة لأهل الهداية ودعاء الملائكة الكرام من حملة العرش لهم بالمغفرة ودخول الجنة:

لقوله - تعالى -: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى} [طه: ٨٢]، وقوله - تعالى -: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [غافر: ٧ - ٩].



وعن فضالة بن عبيد - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: ((طُوبَى لِمَن هُدِي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافًا، وقنع))[88].

يقول الإمام المناوي في "التيسير بشرح الجامع الصغير": ((طوبى لمن هُدِي إلى الإسلام))، ببناء هُدِيَ للمفعول، ((وكان عيشه كفافًا))؛ أي: لا ينقص عن حاجته، ولا يزيد على كفايته، فيبطر ويطغى،

((وقنع))، فلم تطمح نفسه لزيادة عليه.

(٦) تيسير الله لمن سلك طريق الهداية:

لقوله - تعالى -: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: ٦٩]، وقال - تعالى -: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [محمد: ١٧].

ويقول فضيلة الشيخ المحدث "مصطفى العدوي" - حفظه الله - في تفسيره لسورتي الليل والشرح: "وهذه الآيات تُفِيد أن الشخص إذا سلك طريق الهداية يزيده الله - سبحانه وتعالى - هدى، وإذا سلك طريق الغواية فُتِحت له أبواب الغواية كذلك، ففيها أن الشخص إذا التمس أسباب الخير سهَّلها الله عليه، وإذا التمس أسباب الشر والفساد فُتِحت له هذه الأبواب - والعياذ بالله - فالشخص يقدِّم شيئًا من الخير، ثم ييسر الله - سبحانه وتعالى - له أموره إذا اقترب من الله، كما قال النبي - ﷺ- فيما يرويه عن ربه - تبارك وتعالى -: ((وإن تقرَّب مني شبرًا تقرَّبتُ إليه ذراعًا، وإن تقرَّب إليَّ ذراعًا تقرَّبتُ منه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيتُه هرولةً))[89]، وفي هذا المعنى عدَّة آيات، وعدة أحاديث عن رسول الله - ﷺ - كلها تؤكِّد أن الشخص إذا سلك طريقًا أُعِين على هذا الطريق الذي سلكه، فمثلاً رب العزة يقول: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [محمد: ١٧]، ويقول: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: ٦٩]، وتقدَّم قول الله في شأن موسى- عليه الصلاة والسلام -: {آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [القصص: ١٤]،وقوله - تعالى -: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا} [السجدة: ٢٤]، وقوله - تعالى -: {فَلَمَّا زَاغُوا

---

٨٨ – صحيح: رواه الترمذي (٢٣٤٩)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن حبان في "صحيحه" (٧٠٥)، قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح، وصححه الألباني.

٨٩– البخاري (٧٥٣٦)، ومسلم (٢٦٧٥)، وأحمد (٧٤١٦)، والترمذي (٣٦٠٣)، وابن ماجه (٣٨٢٢) عن أبي هريرة.



أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [الصف: ٥]، وقوله - تعالى -: {ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [التوبة: ١٢٧]، وأحاديث النبي - ﷺ - في هذا الباب كثيرة، يقول - عليه الصلاة والسلام -: ((مَن يتصبَّر يصبِّره الله، ومَن يستغنِ يُغْنِه الله، ومَن يستعفِفْ يعفَّه الله))[٩٠].

وكتوضيح يسير لذلك مثلاً: أنت إذا قمتَ تصلِّي من الليل ركعتين لله، والفراش دافئ، والزوجة بجوارك حسناء، وسمعت الصارخ قبل الفجر بساعة أو أقل أو أكثر، وتريد أن تقوم إلى الصلاة، والقيامُ عليك في غاية المشقة، ولكنك استعنتَ بالله - سبحانه وتعالى - وتقوَّيت به - سبحانه - وتجافيتَ عن الفراش، وقمت واستعنت بالله، وصليت ركعتين، فتذوق طعم هذه الطاعة، وكلما تذكرتها في النهار حمدتَ الله، وصدرك منشرح لها، وإذا وقعتَ في كربة في النهار تذكَّرت أنك قمت من الليل وصليت ركعتين لله، فتتوسَّل بهاتينِ الركعتين إلى الله، تأتي الليلة الثانية فتتذكر حلاوة الطاعة فيكون القيام عليك أيسرَ من القيام في الليلة السابقة، وإذا استمرَرْتَ شهرًا على هذا المنوال يصبح قيام الليل عندك في غاية اليسر، يُصبِح على قلبك يسيرًا خفيفًا - بإذن الله سبحانه وتعالى - ييسره الله عليك غاية التيسير، فتكون عادة لك إذا سمعت الصارخ قمت تلقائيًّا، كأنك تقوم لعملك، وأنت متلذِّذ بهذه الطاعة.

جرِّب طاعة أخرى، صلِّ الفجر في جماعة، ثم امكث في مكان صلاتك يومًا إلى طلوع الشمس، تذكُرُ الله، وتأتي بأذكار الصباح، وتتلو ما تيسَّر لك من كتاب الله، في أول يوم العمل عليك شاق غاية المشقة، وفي اليوم التالي ييسر عليك العمل شيئًا ما، وبمرور الأيام - بتوفيق الله - يصبح عليك الجلوس في المصلَّى إلى طلوع الشمس في غاية السهولة واليسر.

وإذا قلتَ لرجلٍ آخرَ: تعالَ معي نجلس من صلاة الفجر إلى طلوع الشمس، فكأنك تسجنُه سجنًا، بينما يكون العمل عليك في غاية اليسر، يأتيك ضيف مثلاً، فيَبِيت عندك، وأنت معتادٌ أن تصلي الفجر، وتمكث في المصلى إلى طلوع الشمس، فالضيف صلَّى معك الفجر، ثم قلت له: أنا أريد أجلس في المصلى إلى طلوع الشمس، يصاب بهمٍّ ما بعده همٌّ، كأنك ضربتَه ضربًا مبرحًا؛ لأنه سيجلس إلى طلوع الشمس! وأنت بسلوكِك لهذا الطريق، واستمرارك عليه جعله الله يسيرًا عليك بإذن الله، وهو لابتعادِه عن هذا الطريق جعله الله شاقًّا عليه في غاية المشقة، وهكذا كل الطاعات.

---

[٩٠] – البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣)، وأحمد في "المسند" (١١٠٠٢)، وأبو داود (١٦٤٤)، والترمذي (٢٠٢٤)، والنسائي (٢٥٨٨) عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه.



صُمْ يوم الاثنين والخميس، أول اثنين وأول خميس تصومُها في غاية المشقَّة، تقول: أجوع، أنا لا أصبر إذا تأخَّر الغداء نصف ساعة، وأعمل مشكلة مع الزوجة في البيت، فكيف أصوم الاثنين والخميس؟ لكن جرِّب واصبر أول أمرك، فيسهل عليك بعد ذلك هذا الصيام، ويكون لك دأبًا، وتكون تلقائيًّا تُصبِح كل يوم اثنين وأنت صائم، وكل يوم خميس وأنت صائم، بدون أي مشقة، وبدون أي تعب، وبدون تكلف، وبدون إرهاق، فمَن سلك طريق الطاعات يسَّرها الله له، وكذلك الإعطاء؛ كما في هذه الآية: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى} [الليل: ٥]، أعطِ الناس، قد يكون الإعطاء عليك في أول يوم شاقًّا، تخرج جُنَيهًا من جيبِك كأنك تقطع من جلدك شيئًا وأنت تتصدق به، تقول: أنا أولى، أشتري بالجنيه كيلو سكر أو أي شيء، فكأنك تقطعه من جلدك، لكن إذا استمررتَ على هذه الطاعات تشعرُ بعد ذلك بأنك تفعلُ الطاعات وأنت في غاية السعادة والانشراح، وتشعر أن الله يباركُ لك في صحتك، وأن الله يدفع عنك بلايا كانتْ ستحلُّ بك وبَنِيك، ترى أبناء إخوانك عند الأطباء وفي المستشفيات، وأنت مبارك لك في مالك وفي ولدك، فتحمد الله وتشكر الله.

فالشاهد: أن مَن سلك طريق الهداية فتح الله له أبوابها، ووفَّقه الله لها وسهَّلها عليه؛ قال - تعالى -: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى} [الليل: ٥ - ٧]؛ أي: سنهيِّئه ونوفِّقه لعمل الخير، ونهديه للطريق اليسرى السهلة السمحاء، {وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [الليل: ٨ - ١٠]، وهذا الذي ييسر للعسرى".[٩١]

[٩١] -"سلسلة التفسير"، المؤلف: أبو عبدالله مصطفى بن العدوي شلباية المصري، المصدر: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية؛ المكتبة الشاملة.



الفصل الرابع

الترغيب في اتباع الهدى والمهتدين، واجتناب الضلال والمضلِّين:

قال - تعالى -: {مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} [الإسراء: ١٥].

قال - تعالى -: {إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} [الزمر: ٤١].

قال - تعالى -: {فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ} [النمل: ٩٢].

{قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى} [طه: ١٣٥].

قال - تعالى -: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ} [يونس: ١٠٨].

وذكر - تعالى - عن الجن قولهم: {وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا} [الجن: ١٣].

وقال - تعالى -: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى} [النجم: ١٩ - ٢٣].

وقال - تعالى -: {إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ} [محمد: ٢٥، ٢٦].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: ((مَن دعا إلى هدًى كان له من الأجر مثلُ أجورِ مَن تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومَن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثلُ آثام مَن تَبِعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا))[٩٢].

وعن المنذر بن جرير عن أبيه، قال: كنا عند رسول الله - ﷺ - في صدر النهار، قال: فجاءه قومٌ حفاةٌ عُرَاة مُجتَابِي النِّمَار - أو العباء - متقلدي السيوف، عامتهم من مُضَرَ، بل كلهم من

[٩٢] - مسلم (٢٦٧٤)، وأحمد في "المسند" (٩١٤٩)، تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح، وأبو داود (٤٦٠٩)، والترمذي (٢٦٧٤)، وابن ماجه (٢٠٦).

مضر، فتمعَّر وجهُ رسول الله - ﷺ - لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذَّن وأقام فصلى، ثم خطب، فقال: (({يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} إلى آخر الآية {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}، والآية التي في الحشر: {اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ}، تصدَّق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره))، حتى قال: ((ولو بشق تمرة))، قال: فجاء رجلٌ من الأنصار بصُرَّة كادت كفُّه تعجز عنها، بل قد عجزت، قال: ثم تتابع الناس حتى رأيتُ كومين من طعام وثياب حتى رأيتُ وجهَ رسول الله - ﷺ - يتهلَّل، كأنه مُذْهبةٌ، فقال رسول الله - ﷺ -: ((مَن سنَّ في الإسلام سنةً حسنةً، فله أجرها وأجر مَن عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومَن سنَّ في الإسلام سنةً سيئةً كان عليه وزرها ووزر مَن عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء))[٩٣].

وقال - تعالى -: {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ} [النحل: ٢٥].

يقول العلامة الشنقيطي - رحمه الله - في "أضواء البيان":

"ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن أولئك الكفار الذين يصرفون الناس عن القرآن بدعواهم أنه أساطير الأولين؛ تحملوا أوزارهم - أي: ذنوبهم - كاملة، وبعض أوزار أتباعهم الذين اتَّبَعوهم في الضلال؛ كما يدل عليه حرف التبعيض الذي هو {مِنْ} في قوله: {وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ...}الآية".

وقال القرطبي: {مِنْ} لبيان الجنس؛ فهم يحملون مثل أوزار مَن أضلوهم كاملة.

وأوضح - تعالى - هذا المعنى في قوله: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [العنكبوت: ١٣]، واللام في قوله: {لِيَحْمِلُوا}، تتعلَّق بمحذوف دلَّ المقام عليه؛ أي: قدَّرنا عليهم أن يقولوا في القرآن: أساطير الأولين؛ ليحملوا أوزارهم.

تنبيه:

فإن قيل: ما وجهُ تحمُّلهم بعض أوزارِ غيرهم المنصوص عليه بقوله: {وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ...} الآية، وقوله: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ} [العنكبوت: ١٢]، مع أن الله يقول: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الأنعام: ١٦٤]، و[الإسراء: ١٥]، و[فاطر: ١٨]،

---

[٩٣] – مسلم (١٠١٧)، وأحمد في " المسند" (١٩١٧٩)، والنسائي (٢٥٥٤).

و[الزمر: ٧]، ويقول - جل وعلا -: {وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا} [الأنعام: ١٦٤]، ويقول: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [البقرة: ١٣٤، ١٤١]، إلى غير ذلك من الآيات.

معاني بعض الكلمات:

المجتاب: اللابس.

المُذْهبة: الشيء المموَّه بالذهب.

النِّمار: جمع نمرة، وهى كساء فيه خطوط بيض وسود تلبَسُه الأعراب.

فالجواب - والله تعالى أعلم -: أن رؤساء الضلال وقادته تحمَّلوا وزرينِ:

أحدهما: وزر ضلالهم في أنفسهم.

والثاني: وزر إضلالهم غيرهم؛ لأنه مَن سنَّ سنة سيئة، فعليه وزرها ووزر مَن عمل بها، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئًا، وإنما أخذ بعمل غيره؛ لأنه هو الذي سنَّه وتسبَّب فيه، فعُوقِب عليه من هذه الجهة؛ لأنه مِن فعلِهِ، فصار غير منافٍ لقوله: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى...} الآية، وساق - رحمه الله - الحديثين المذكورين آنفًا.

وأقول: لا ننسى أن هذه الآية شاملة لعاقبة كل مَن دعا إلى ضلالة، سواء أكان ذلك كفرًا، أو نفاقًا، أو في العبادات، أو المعاملات، أو الشهوات، أو الأخلاق؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

إثبات عدل الله - تعالى - فيمَن أضلَّهم:

لقوله - تعالى -: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [يونس: ٤٤]، ولقوله - تعالى -: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [البقرة: ٢٥٨]، ولقوله - تعالى -: {كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [آل عمران: ٨٦]، ولقوله - تعالى -: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة: ٥١]، ولقوله - تعالى -: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [المائدة:



٦٧]، ولقوله - تعالى -: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ * فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [المائدة: ١٠٦ - ١٠٨]، ولقوله - تعالى -: {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [الأنعام: ١١٦ - ١١٧].

يقول الإمام ابن كثير - رحمه الله -:

"يُخبِر - تعالى - عن حال أكثر أهل الأرض من بني آدم أنه الضلال؛ كما قال - تعالى -: {وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ} [الصافات: ٧١]، وقال - تعالى -: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [يوسف: ١٠٣]، وهم في ضلالهم ليسوا على يقينٍ من أمرهم، وإنما هم في ظنونٍ كاذبة وحسبان باطلٍ، {إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ}؛ فإن الخرص هو الحَزْر، ومنه خرص النخل، وهو: حَزْر ما عليها من التمر، وكذلك كله قدر الله ومشيئته، و{هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ}؛ فييسره لذلك {وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}؛ فييسرهم لذلك، وكلٌّ ميسَّر لما خلق له".

وقوله - تعالى -: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [الأنعام: ١٤٤]، ولقوله - تعالى -: {قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ} [الأعراف: ٢٩، ٣٠]، ولقوله - تعالى -: {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [التوبة: ١٩]، وقوله - تعالى -: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: ٢٤]، ولقوله - تعالى -: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا



بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: ٨٠]، ولقوله - تعالى -: {أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [التوبة: ١٠٩]، ولقوله - تعالى -: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} [إبراهيم: ٢٧]، ولقوله - تعالى -: {فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [القصص: ٥٠]، ولقوله - تعالى -: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [الصف: ٥]، ولقوله - تعالى -: {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [الليل: ٤ - ١٠].

ويقول الإمام الشوكاني في تفسير قوله - تعالى -: {وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى}، صفة أخرى للرب، أو معطوف على الموصول الذي قبله، قرأ علي بن أبي طالب والكسائي والسلمي "قدر" مخففًا، وقرأ الباقون بالتشديد، قال الواحدي: قال المفسِّرون: قدر خلق الذكر والأنثى من الدواب، فهدى الذكر للأنثى كيف يأتيها.

وقال مجاهد: هدى الإنسان لسبيل الخير والشر والسعادة والشقاوة.

وروي عنه أيضًا أنه قال في معنى الآية: قدر السعادة والشقاوة، وهدى للرشد والضلالة، وهدى الأنعام لمراعيها.

وقيل: قدَّر أرزاقهم وأقواتهم، وهداهم لمعايشهم إن كانوا إنسًا، ولمراعيهم إن كانوا وحشًا.

وقال عطاء: جعل لكل دابة ما يُصلِحُها وهداها له.

وقيل: خلق المنافع في الأشياء، وهدى الإنسان لوجه استخراجها منها.

وقال السدي: قدَّر مدة الجنين في الرحم تسعة أشهر وأقل وأكثر، ثم هداه للخروج من الرحم.

قال الفراء: أي قدَّر فهَدَى وأضلَّ، فاكتفى بأحدهما.

وفي تفسير الآية أقوال غير ما ذكرنا، والأولى عدمُ تعيينِ فرد أو أفراد مما يصدق عليه قدر وهدى، إلا بدليل يدل عليه، ومع عدم الدليل يحمل على ما يصدق عليه معنى الفعلين، إما على البدل، أو على الشمول.

والمعنى: قدر أجناس الأشياء وأنواعها وصفاتها وأفعالها وأقوالها وآجالها، فهدى كلَّ واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغي له، ويسره لما خُلِق له، وألهمه إلى أمور دينه ودنياه".



يقول الإمام ابن كثير - رحمه الله -: "وقوله - تعالى -: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا} [الشمس: ٧]؛ أي: خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة؛ كما قال - تعالى -: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} [الروم: ٣٠]، وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال النبي - ﷺ -: ((كل مولود يُولَد على الفطرة؛ فأبواه يهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يمجِّسانه؛ كمثل البهيمة تنتج البهيمة، هل ترى فيها جدعاء؟))[٩٤].

وفي صحيح مسلم من رواية عياض بن حمار المجاشعي - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال ذات يوم في خطبته: ((ألا إن ربي أمرني أن أعلِّمكم ما جهلتُم مما علمني يومي هذا، كل مالٍ نحلتُه عبدًا حلال، وإني خلقتُ عبادي حنفاء كلَّهم، وإنهم أتتْهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم))[٩٥].

وقوله: {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} [الشمس: ٨]؛ أي: فأرشدها إلى فجورها وتقواها؛ أي: بيَّن لها ذلك، وهداها إلى ما قدَّر لها.

قال ابن عباس: {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}؛ بيَّن لها الخير والشر، وكذا قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، والثوري.

وقال سعيد بن جبير: ألهمها الخير والشر، وقال ابن زيد: جعل فيها فجورها وتقواها.

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن بشار، حدثنا صفوان بن عيسى، وأبو عاصم النبيل قالا: حدثنا عزرة بن ثابت، حدثني يحيى بن عقيل، عن يحيى بن يعمر، عن أبي الأسود الديلي[٩٦]، قال: قال لي عمران بن حصين: أرأيتَ ما يعمل فيه الناس ويتكادحون فيه، أشيء قُضِي عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم - ﷺ - وأكدت عليهم الحجة؟ قلت: بل شيء قضي[٩٧] عليهم، قال: فهل يكون ذلك ظلمًا؟ قال: ففزعتُ منه فزعًا شديدًا، قال: قلت له: ليس شيء إلا وهو خَلْقُهُ وملك يده، لا يسأل عمَّا يفعل وهم يسألون، قال: سدَّدك الله، إنما سألت لأخبُرَ[٩٨] عقلك، إن رجلاً من مُزَينة - أو جُهَينة - أتى رسول الله

[٩٤] - البخاري (١٣٨٥)، مسلم (٢٦٥٨).
[٩٥] - مسلم (٢٨٦٥).
[٩٦] - في أ: "الديلمي".
[٩٧] - في أ: "شيء قد قضي".
[٩٨] - في م: "إنما سألتك لأختبر".

- ﷺ - فقال: يا رسول الله، أرأيتَ ما يعمل الناس فيه ويتكادحون، أشيءٌ قُضِي عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق، أم شيء مما يستقبلون مما أتاهم به نبيُّهم، وأُكدت به عليهم الحجة؟ قال: ((بل شيء قد قضي[99] عليهم))، قال: ففيمَ نعمل؟ قال: ((مَن كان الله خلقه لإحدى المنزلتين يهيّئه لها، وتصديق ذلك في كتاب الله: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}))؛ رواه أحمد ومسلم، من حديث عزرة بن ثابت به[100].

ويقول ابن الجوزي في "زاد المسير":

قوله - تعالى -: {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [البلد: ١٠]؛ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: سبيل الخير والشر؛ قاله علي، والحسن، والفراء.

وقال ابن قتيبة: يريد طريق الخير والشر.

وقال الزجَّاج: النجدان الطريقان الواضحان، والنَّجْد المرتفع من الأرض؛ فالمعنى: ألم نعرِّفْه طريق الخير والشر، كتبيينِ الطريقين العاليين.

والثاني: سبيل الهدى والضلال؛ قاله ابن عباس.

وقال مجاهد: هو سبيل الشقاوة والسعادة.

والثالث: الثديان؛ ليتغذى بلبنهما؛ رُوِيَ عن ابن عباس أيضًا، وبه قال ابن المسيب، والضحاك وقتادة، وعن كثير من المفسّرين - رحمهم الله؛ كقوله - تعالى -: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} [الإنسان: ٣].

وجوب إنكار المنكر بحسب الاستطاعة:

لقوله - تعالى -: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [المائدة: ١٠٥].

وعن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أنه خطب، فقال: يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها على غير ما وضعها الله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا

---

[99] – في م: "قضى الله".

[100] – مسلم (٢٦٥٠)، وأحمد في " المسند" (١٩٩٥٠).



اهْتَدَيْتُمْ}، سمعتُ رسول الله - ﷺ - يقول: ((إن الناسَ إذا رأوا المنكَرَ بينهم فلم ينكروه، يوشك أن يَعُمَّهم اللهُ بعقابه))[١٠١].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

"ترك أهل العلم لتبليغ الدين كترك أهل القتال للجهاد، وترك أهل القتال للقتال الواجب عليهم، كترك أهل العلم للتبليغ الواجب عليهم".

كما لا ينبغي أن يفتَّ في عَضُدِ أهل الدعوة انتفاشُ الباطل وانتشاره؛ لأن الله إنما كلفهم بالبلاغ وليس بالهداية، ولهم في أنبياء الله أسوة؛ فإن النبي من أنبياء الله قد يأتي يوم القيامة ومعه الرجل والرجلان، أو قد يأتي ليس معه أحد، ولا يكون هذا عن تقصير في الدعوة أو إخلال بالبلاغ؛ فإن الهداية مسلَّمة إلى الله - تعالى - وحده، قال - عز وجل -: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [القصص: ٥٦]، وقال - سبحانه -: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [البقرة: ٢٧٢]؛ فالدعوة إنما تكون {مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [الأعراف: ١٦٤].

وتأسيسًا على ما تقدَّم، فإن ممارسة الدعوة إلى الله - تعالى - واجبة وجوبًا عينيًّا، يتفاوت بحسب كل مكلَّف، والعلم قبل القول والعمل، ففرضٌ على كل داعية أن يتعلَّم من علم أصول الدعوة ما يُقِيم دعوته صحيحة موافقة للهَدْي والسمت الذي كان عليه الدعاة الأوائل - عليهم صلوات الله وسلامه؛ قال - سبحانه وتعالى -: {فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: ٩٠]، والقاعدة الفقهية تنصُّ على أن "ما لا يقوم الواجب إلا به فهو واجب"؛ فعلى كل داعية أن يستقي من علم "أصول الدعوة" ما لا يسعه أن يجهلَه من هَدي النبي - ﷺ - في الإصلاح والتغيير، وأن يدرك سنن الله الحاكمة في التمكين والاستخلاف، ثم إنه يجب على بعض الدعاة الفقهاء أن يقوموا بفرض الكفاية من الاجتهاد الذي يهيِّئهم للنظر في النوازل الدعوية، ويمكِّنهم من استنباط الأحكام الشرعية، وتحقيق المصالح المعتبرة وتكميلها، ودفع المفاسد أو تقليلها، والموازنة بين الإيجابيات والسلبيات؛ دعمًا وتسديدًا لمسيرة الدعوة، وحفظًا وترشيدًا لجهود العاملين[١٠٢].

---

[١٠١] – صحيح: رواه أحمد في المسند (١، ١٦، ٣٠، ٥٣)، تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأبو داود (٤٣٣٨)، وابن ماجه (٤٠٠٥)، والترمذي (٣٠٥٧)، وصححه الألباني.

[١٠٢] – "مبادئ علم أصول الدعوة – دراسة تأصيلية"؛ تأليف الدكتور/ محمد يسري.

تحذير الضعفاء من تركهم هدى الله متابعة للكبراء:

لقوله - تعالى -: {وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ } [إبراهيم: ٢١].

يقول الشيخ سيد قطب - رحمه الله - في "ظلال القرآن":

{وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا} الطغاة المكذِّبون وأتباعهم من الضعفاء المستذَلِّين، ومعهم الشيطان.. ثم الذين آمنوا بالرسل وعملوا الصالحات.. برزوا {جَمِيعًا} مكشوفين، وهم مكشوفون لله دائمًا، ولكنهم الساعة يعلمون ويحسُّون أنهم مكشوفون، لا يحجبهم حجاب، ولا يسترهم ساتر، ولا يقيهم واقٍ.. برزوا وامتلأت الساحة ورفع الستار، وبدأ الحوار: {فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ...؟}، والضعفاء هم الضعفاء، هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله، حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد والاتجاه، وجعلوا أنفسهم تبعًا للمستكبرين والطغاة، ودانوا لغير الله من عبيده، واختاروها على الدينونة لله.

والضعف ليس عذرًا، بل هو الجريمة؛ فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفًا، وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه يعتزون به والعزة لله، وما يريد الله لأحد أن ينزل طائعًا عن نصيبه في الحرية التي هي ميزته ومناط تكريمه أو أن ينزل كارهًا.

والقوة المادية - كائنة ما كانت - لا تملك أن تستعبد إنسانًا يريد الحرية، ويستمسك بكرامته الآدمية، فقصارى ما تملكه تلك القوة أن تملك الجسد، تؤذيه، وتعذبه، وتكبله، وتحبسه، أما الضمير، أما الروح، أما العقل؛ فلا يملك أحد حبسها ولا استذلالها، إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال!

مَن ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعًا للمستكبرين في العقيدة، وفي التفكير، وفي السلوك؟ مَن ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء يدينون لغير الله، والله هو خالقهم، ورازقهم، وكافلهم دون سواه؟

لا أحد، لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة؛ فهم ضعفاء لا لأنهم أقل قوة مادية من الطغاة، ولا لأنهم أقل جاهًا أو مالاً أو منصبًا أو مقامًا.. كلا، إن هذه كلها أعراض خارجية لا تعدُّ بذاتها ضعفًا يلحق صفة الضعف بالضعفاء، إنما هم ضعفاء؛ لأن الضعف في أرواحهم، وفي قلوبهم، وفي نخوتهم، وفي اعتزازهم بأخص خصائص الإنسان!

إن المستضعفين كثرة، والطواغيت قلة؛ فمَن ذا الذي يخضع الكثرة للقلة؟ وما الذي يخضعها؟ إنما يخضعها ضعف الروح، وسقوط الهمة، وقلة النخوة، والتنازل الداخلي عن الكرامة التي وهبها الله لبني الإنسان!

إن الطغاة لا يملكون أن يستذلوا الجماهير إلا برغبة هذه الجماهير؛ فهي دائمًا قادرة على الوقوف لهم لو أرادت؛ فالإرادة هي التي تنقص هذه القطعان!

إن الذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل في نفوس الأذلاء.. وهذه القابلية هي وحدها التي يعتمد عليها الطغاة! والأذلاء هنا على مسرح الآخرة في ضعفهم وتبعيتهم للذين استكبروا يسألونهم: {إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ}؟ [إبراهيم: ٢١]، وقد اتبعناكم فانتهينا إلى هذا المصير الأليم؟!

أم لعلهم وقد رأوا العذاب يهمُّون بتأنيب المستكبرين على قيادتهم لهم هذه القيادة، وتعريضهم إياهم للعذاب؟ إن السياق يحكي قولهم، وعليه طابع الذلة على كل حال!

ويرد الذين استكبروا على ذلك السؤال: {قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ} [إبراهيم: ٢١]، وهو رد يبدو فيه البرم والضيق: {لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ}؛ فعلامَ تلوموننا، ونحن وإياكم في طريق واحد، إلى مصير واحد؟ إننا لم نهتدِ ونضللكم، ولو هدانا الله لقُدْنَاكم إلى الهدى معنا، كما قُدْناكم حين ضللنا إلى الضلال! وهم ينسبون هداهم وضلالهم إلى الله، فيعترفون الساعة بقدرته، وكانوا من قبل ينكرونه وينكرونها، ويستطيلون على الضعفاء استطالة مَن لا يحسب حسابًا لقدرة القاهر الجبار.

وهم إنما يتهربون من تبعة الضلال والإضلال برجع الأمر لله.. والله لا يأمر بالضلال؛ كما قال - سبحانه -: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ} [الأعراف: ٢٨]، ثم هم يؤنبون الضعفاء من طرف خفي، فيعلنونهم بأن لا جدوى من الجزع، كما أنه لا فائدة من الصبر، فقد حق العذاب، ولا رادَّ له من صبر أو جزع، وفات الأوان الذي كان الجزع فيه من العذاب يجدي فيرد الضالين إلى الهدى، وكان الصبر فيه على الشدة يجدي فتدركهم رحمة الله، لقد انتهى كل شيء، ولم يعدْ هنالك مفر ولا محيص، {سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ} [إبراهيم: ٢١].

التحذير من اتباع الآباء في مخالفة شرع الله - تعالى -:

لقوله - تعالى -: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} [البقرة: ١٧٠]، وقوله - تعالى -: {وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ



قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} [الزخرف: ٢٣، ٢٤]، وقوله - تعالى -: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} [الشعراء: ٦٩ - ٧٤]، وقوله - تعالى -: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} [المائدة: ١٠٤].

يقول الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره:

"أي: إذا دُعُوا إلى دين الله وشرعه، وما أوجبه، وترك ما حرمه، قالوا: يَكْفِينا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك؛ قال الله - تعالى -: {أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا}؛ أي: لا يفهمون حقًّا، ولا يعرفونه، ولا يهتدون إليه، فكيف يتبعونهم والحالة هذه؟ لا يتبعهم إلا مَن هو أجهل منهم، وأضل سبيلاً.

عاقبة كل مَن نهى عن هدى الله، أو آذى الدعاة إليه:

لقوله - تعالى - لنبيه - ﷺ -: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ * كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى * أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى * كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ * كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ} [العلق: ١ - ١٩].

يقول الإمام العلامة السعدي - رحمه الله - في تفسيره:

"هذه السورة أول السور القرآنية نزولاً على رسول الله - ﷺ - فإنها نزلت عليه في مبادئ النبوة؛ إذ كان لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان؟ فجاءه جبريل - عليه الصلاة والسلام - بالرسالة، وأمره أن يقرأ، فامتنع، وقال: ((ما أنا بقارئ))، فلم يزل به حتى قرأ، فأنزل الله عليه: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} عموم الخلق، ثم خصَّ الإنسان، وذكر ابتداء خلقه {مِنْ عَلَقٍ}؛ فالذي خلق الإنسان واعتنى بتدبيره، لا بد أن يدبره بالأمر والنهي؛ وذلك بإرسال الرسول إليهم، وإنزال الكتب عليهم؛ ولهذا ذكر بعد الأمر بالقراءة خَلْقَه للإنسان.



ثم قال: {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ}؛ أي: كثير الصفات واسعها، كثير الكرم والإحسان، واسع الجود، الذي من كرمه أن علم بالعلم.

و{عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}؛ فإنه - تعالى - أخرجه من بطن أمِّه لا يعلم شيئًا، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، ويسَّر له أسباب العلم؛ فعلَّمه القرآن، وعلَّمه الحكمة، وعلمه بالقلم، الذي به تحفظ العلوم، وتضبط الحقوق، وتكون رسلاً للناس تنوب مناب خطابهم، فلله الحمد والمنة، الذي أنعم على عباده بهذه النعم التي لا يقدرون لها على جزاء ولا شكور، ثم منَّ عليهم بالغنى وسعة الرزق، ولكن الإنسان - لجهله وظلمه - إذا رأى نفسه غنيًّا طغى وبغى، وتجبر عن الهدى، ونسي أن إلى ربه الرُّجْعَى، ولم يَخَفِ الجزاء، بل ربما وصلتْ به الحال أنه يترك الهدى بنفسه، ويدعو غيره إلى تركه، فينهى عن الصلاة التي هي أفضل أعمال الإيمان.

يقول الله لهذا المتمرد العاتي: {أَرَأَيْتَ} أيها الناهي للعبد إذا صلى {إِنْ كَانَ} العبد المصلي {عَلَى الْهُدَى} العلم بالحق والعمل به، {أَوْ أَمَرَ} غيره {بِالتَّقْوَى}.

فهل يحسن أن يُنْهَى مَن هذا وصفه؟ أليس نهيُه من أعظم المحاداة لله، والمحاربة للحق؟ فإن النهي لا يتوجَّه إلا لمن هو في نفسه على غير الهدى، أو كان يأمر غيره بخلاف التقوى.

{أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ} الناهي بالحق {وَتَوَلَّى} عن الأمر، أَمَا يخاف الله ويخشى عقابه؟

{أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} ما يعمل ويفعل؟

ثم توعده إن استمر على حاله، فقال: {كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ} عمَّا يقول ويفعل {لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ}؛ أي: لنأخذنَّ بناصيته أخذًا عنيفًا، وهي حقيقةٌ بذلك؛ فإنها {نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ}؛ أي: كاذبة في قولها، خاطئة في فعلها.

{فَلْيَدْعُ} هذا الذي حق عليه العقاب {نَادِيَهُ}؛ أي: أهل مجلسه وأصحابه ومَن حوله، ليُعِينوه على ما نزل به، {سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ}؛ أي: خَزَنة جهنم، لأخذِه وعقوبته؛ فلينظر أي الفريقين أقوى وأقدر؟ فهذه حالة الناهي وما تُوُعِّد به من العقوبة، وأما حالة المنهي، فأَمَره الله ألا يُصغِي إلى هذا الناهي، ولا ينقاد لنهيه، فقال: {كَلَّا لَا تُطِعْهُ}؛ أي: فإنه لا يأمر إلا بما فيه خسارة الدارين، {وَاسْجُدْ} لربك، {وَاقْتَرِبْ} منه في السجود وغيره من أنواع الطاعات والقربات؛ فإنها كلها تُدْني من رضاه وتقرِّب منه.

وهذا عامٌّ لكل ناهٍ عن الخير ومنهي عنه، وإن كانت نازلة في شأن أبي جهل حين نهى رسول الله - ﷺ - عن الصلاة، وعبث به وآذاه.



حمد المؤمنين لله - تعالى - يوم القيامة على هدايته لهم في الدنيا وإدخالهم الجنة:

لقوله - تعالى -: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: ٤٣].

وفي تفسير الجلالين:

{وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ} حقد كان بينهم في الدنيا، {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ} تحت قصورهم {الْأَنْهَارُ}، وقالوا عند الاستقرار في منازلهم: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا} العمل، الذي هذا جزاؤه، {وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ}، حذف جواب "لولا" لدلالة ما قبله عليه،{لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ} مخففة؛ أي: أنه، أو مفسرة في المواضع الخمسة {تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}.

هذا ما يسر الله لي جمعه وإعداده، والحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات.

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وسلم، ورضي الله عن صحابته الكرام أجمعين.

تم بحمد الله وتوفيقه

الباحث في القرآن والسنة

أخوكم في الله /صلاح عامر

الفهرس